الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

دراسة تاريخية وتطبيقية من القرآن والسيرة النبوية

د. محمد عطا الحمد يوسف *

مقدمة :

إن الحمدلله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد عبدالله ورسوله ، أرسله ربه بالبينات ، وجعل معجزته في القرآن أولى المعجزات ، فأزال به الشبهات ، وقمع به الشهوات . وبعد .

فلم ولن تعهد البشرية كتابا كان له من الأثر في حياتها كما كان للقرآن الكريم ، فقد ترك أثره في تصورات الإنسان وفكره ومعتقده ، فاقتلع جذور الشرك ، وأزال حجب الريب والشك ، وأخبر الإنسان عن مبدئه وحياته ومعاده ، ومصيره بعد مماته .

ولم يترك القرآن جانبا من جوانب حياة الإنسان إلا وتناوله بالبيان الواضح الذي لاغموض فيه .

ففي مجال الحكم والسياسة ، والاجتماع والحضارة ، والأخلاق

---

* مدرس التفسير وعلوم القرآن - كلية الآداب - جامعة طنطا - جمهورية مصر العربية - معار حالياً - إلي كلية البنات في حفر الباطن - المملكة العربية السعودية .

والآداب ، والثقافات العامة . . .إلى غير ذلك من مجالات الحياة كان للقرآن - ولايزال - منهجه الصحيح ، ودستوره القويم ، حتى رأى العالم كله أثره العملي في قيام الدول والحضارات ، وتنوع الأفكار والثقافات .

كانت هذه الآثار العملية - التي أشرت إلى بعضها في إجمال شديد - هي التي جعلت علماء المسلمين يشدهون بمحتوى القرآن ، فيقبلون عليه إقبال المستكشف لأسراره ، المتأمل لوجوه إعجازه ، الباحث عن كنه هذه الأسرار التي بها أحدث من الآثار في حياة البشرية مالم تعهده من قبله ولامن بعده من كتاب سواه .

أقبل عليه العلماء بكل مامنحهم الله من طاقات بشريه ، يكتبون عن كل شيء فيه ، مستعينين في ذلك بما قاله منزله - سبحانه - من أوصاف وخصائص ، وبما أخبر به الصادق الصدوق محمد - ﷺ - عن هذا الكتاب نفسه . وكان من العلوم القرآنية التي حازت نصيبا كبيرا من جهد علمائنا وتراثهم الفكري ، علم إعجاز القرآن الكريم ، وبيان وجوهه ، ومحاولة الكشف عن بعض مظاهره .

بيد أن التاريخ لم يتحدث لنا - حسب علمي - عن مصنفات في هذا العلم في عهد رسول الله - ﷺ - وصحابته ، وذلك لاعتبارات كثيرة ، منها : إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتلون من آيات القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ (١) وقوله تعالى أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ (٢)

(١) سورة الاسراء ، آية :٨٨ .

(٢) سورة هود ، آيه :١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤) كان الصحابة يتلون أو يسمعون هذه الآيات تقرع أسماع الكافرين : فصحائهم وبلغائهم وشعرائهم ولايجدون من بين هؤلاء جميعا من يأتي بمثل شيء من القرآن ، بل والأكثر من ذلك أن يرى الصحابة بأنفسهم كيف أن المعلقات السبع تنزوى من فوق جدر الكعبة ، وتختفي في استحياء ذليل أمام بلاغة القرآن وفصاحته ، إذا فقد كانوا يرون الإعجاز واقعا ملموسا ، محققاً أمام أعينهم .

والاعتبار الآخر أنهم رأوا إعجاز القرآن بصورة واقعية أكثر مما حدث مع المعلقات السبع وغيرها ، ذلك عندما رأوه يتجسد في إسلام كثير منهم ، عندما سمعوه ، فاهتزت له قلوبهم ، وأخذتهم روعته وسحر بيانه ، فانصاعوا إلى الإسلام طائعين ، رأوا ذلك في إسلام عمر بن الخطاب ، والطفيل بن عمرو الدوسي ، وأبي ذر الغفاري ، وغيرهم ، ورأوا أكثر من ذلك أثرا لإعجاز القرآن على وجه (الوليد بن المغيرة) الذي لم يؤمن بالقرآن ، إلا أنه لما سمعه تغير وجهه ، ونطق لسانه بما حفظه عنه التاريخ ووعاه فقال : (إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وماأنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل)(٥) ، كان الصحابة يرون ذلك وغيره ، فيغنيهم عن التأليف والتصنيف في بيان إعجاز القرآن .

فلما توالت الأزمان وظهر من ينكر إعجاز القرآن تصدى له علماء المسلمين بالتصنيف والتأليف ، ودحض حججه بالدليل والبرهان ، فتناولوا

---

(٣) سورة يونس ، آيه :٣٨ .

(٤) سورة البقرة ، آيه :٢٣ .

(٥) السيرة النبوية ١/ ٢٧٠ لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان د .ت .

إعجاز القرآن من شتى وجوهه ، فمنهم من قال : إن إعجازه في نظمه وبلاغته ، ومنهم من قال : إن إعجازه في صرف العرب عنه ، وقد رد العلماء على ذلك ، ومنهم من قال : إن إعجازه في أثره في النفوس ، وفي روعته التي تلحق القلوب ، وغير ذلك من الوجوه . وهذا الوجه الأخير جعله أبوسليمان حمد الخطابي قائما بذاته ، وبين أصوله التي ترتبط بالقرآن ، وبما رواه الصحابة مما ذكرنا طرفا منه آنفا . وظل هذا الوجه يذكره العلماء بين وجوه الإعجاز بصور مختصرة ، إلا أنهم ينصون دائما على أهميته ، حتى عصرنا الحديث ، عندما صنف الدكتور عبدالكريم الخطيب ، والشيخ محمد الغزالي ، فرأيا أن هذا الوجه كان ولايزال أهم وجوه الإعجاز على الإطلاق ، بيد أنه لم ينل حظه من البحث والدرس .

وكان ذلك بالإضافة إلى مايضيفه هذا البحث إلى المكتبة القرآنية - وبخاصة في بيان جانب من أهم جوانب الإعجاز فيه - دافعا لي لتناول هذا الوجه في هذا البحث المتواضع الذي أتى في مباحث ثلاثة :

الأول : وعنوانه : (تعريف الإعجاز التأثيري لغة واصطلاحا) .

الثاني : وعنوانه (نشأة الإعجاز التأثيري وتطوره) وذلك من خلال حديث بعض العلماء القدماء والمحدثين عن هذا الوجه .

الثالث : وعنوانه : (الإعجاز التأثيري من خلال بعض الآيات القرآنية وبعض المواقف من السيرة النبوية) ثم الخاتمة ، وقائمة المصادر ، والله سبحانه وتعالى أسأل التوفيق والسداد ، ، ،

المبحث الأول

الإعجاز التأثيري لغة واصطلاحا

١ - أما لغة :

فالإعجاز : من العجز ، والعجز : أصله التأخر عن الشيء ، وحصوله عند عجز الأمر ، أي مؤخره - كما ذكر في الدبر ، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة . قال تعالى : ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا **الْغُرَابِ** ﴾(٦) وأعجزت فلانا وعجزته ، وعاجزته : جعلته عاجزا . قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٨)(٩) .

وأما التأثيري : فهو مركب إسنادي من أثر الشيء : أي حصول مايدل على وجوده . يقال : أثر الشيء وأثر ، والجمع الأثار يقول تعالى ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا(١٠) . ويقول :﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(١١) ، ويقول :﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾(١٢) ومن هذا يقال للطريق المستدل من تقدم : آثار . يقول تعالى : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾(١٣) ويقول : ﴿ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾(١٤) ، وأثرت البعير : جعلت على خفه أثرة ، أي علامة تؤثر في الأرض ، ليستدل بها على أثره ، وأثرت العلم : رويته : أثره : أثرا ، وإثارة ، وأثرة ، وأصله : تتبعت أثره)(١٥) .

---

(٦) سورة المائدة ، آيه : ٣١ .
(٧) سورة التوبة ، آيه : ٢ .
(٨) سورة الشورى ، آيه : ٣١
(٩) المفردات في غريب القرآن - للراغب الأصبهاني - ص ٤٨٤ - مكتبة الأنجلو - مصر ١٩٧٠م .
(١٠) سورة الحديد ، آيه : ٢٧ .
(١١) سورة غافر ، آيه : ٢١ .
(١٢) سورة الروم ، آيه : ٥٠ .
(١٣) سورة الصافات ، آيه : ٧٠ .
(١٤) سورة طه ، آيه : ٨٤ .
(١٥) المصدر السابق ص ٨ .

والخلاصة : فالإعجاز في اللغة : (هو العجز والتأخر عن فعل الشيء ، أي الإيقاع في العجز)[١٦] ، والتأثيري في اللغة مأخوذ من الأثر ، والنتيجة ، أو المحصلة الدالة على وجود مؤثر ما ، سواء أكان المؤثر حسيا ، كما في قولهم : (أثرت البعير) ، أم معنوياً ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾[١٧][١٨] .

٢ - تعريفه اصطلاحا :

مر بنا التعريف لغة لكلمتي (الإعجاز والتأثيري) ، وقد دأب الباحثون على تقديم تعريف لموضوعات أبحاثهم ، وسنحاول إن شاء الله تقديم تعريف للإعجاز التأثيري ، وهو اجتهاد من الباحث يرى - من وجهة نظره - أنه قريب من الصواب ولايستبعد عنه النقص أو الخطأ ، والله المستعان .

(فالإعجاز التأثيري للقرآن هو : وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم . أشار إليه السابقون ، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ، ولايستطيع هذا السامع أو القاريء مقاومته ودفعه ، ولايقتصر ذلك على المؤمنين به) . ونشرح هذا التعريف على النحو التالي :

أما قولي : «وجه من وجوه الإعجاز القرآني) : فقد عد العلماء السابقون الباحثون في قضية الإعجاز وجوها لإعجازه تتراوح مابين أربعة وجوه عند الخطابي - مثلا[١٩] - إلى ثمانية وعشرين وجها ، كما يرى هبة الدين الحسيني في عصرنا الحديث[٢٠] .

(١٦) الظاهرة القرآنية ص٦٠ ، دار الفكر - دمشق ١٤٠٢هـ .
(١٧) سورة الروم ، آيه :٥٠ .
(١٨) المفردات ، ص ٢٧٩ .
(١٩) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للرماني ، والخطابي ، وعبدالقاهر الجرجاني - تحقيق د .محمد زغلول سلام وآخرين ص٢١ ، ٢٢ - دار المعارف مصر ١٣٧٦هـ .
(٢٠) انظر كتاب (نظرات في القرآن) للشيخ محمد الغزالي ص١٥٨ ، ١٦٠ ، دار الكتب الحديثه القاهرة - الطبعة الخامسة - د .ت .

وقولي : «أشار إليه السابقون) : فأرى أن أول من أشار إلى هذا الوجه إشارة واضحة هو الخطابي ، إذ يقول : (في إعجاز القرآن الكريم وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلايكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم . وذلك صنيعه في القلوب ، وتأثيره في النفوس . . .)[٢١] وظلت هذه الإشارة من الخطابي تتداول في كتب السابقين واللاحقين على ماسنرى في الحديث عن نشأة هذا الوجه من وجوه الإعجاز وتاريخه .

وقولي : (مايتركه القرآن من أثر ظاهر) : نحو مانرى في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾[٢٢] وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٢٣] وكقوله تعالى في حق المؤمنين : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾[٢٤] وغير ذلك كثير ، مما سنعرض له قريبا إن شاء الله .

وكذلك ماثبت في السنة من بكائه - ﷺ - عند تلاوته للقرآن ، وبخاصة في تلاوته لقوله تعالى : ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[٢٥] وماعرف عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - من بكائه الشديد تأثرا بالقرآن في صلاته[٢٦] وغير ذلك ، مما سنبينه عندما نستعرض هذه المواقف من السيرة النبوية . ولعل عرضنا لهذه المواقف القليلة السابقة يكشف لنا بوضوح عن هذا الوجه من وجوه الإعجاز . وقولنا : (أوباطني) ، فكم كشف القرآن عن بواطن النفوس ، وذوات الصدور ، فلايوجد مثله كتاب في تناوله للنفس البشرية ، يكشف خبيأتها ، ويقوم عوجها ، فيصوب فكرها ورأيها ونظرتها للكون وللحياة .

---

(٢١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٠ .
(٢٢) سورة الإسراء آيه :٤٦ .
(٢٣) سورة فصلت آيه :٢٦ .
(٢٤) سورة الإسراء آيه :١٠٩ .
(٢٥) سورة النساء آيه :٤١ .
(٢٦) مختصر السيرة النبوية ص٨٧، ٨٨ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - دار صادر .

وقولي : (على سامعه وقارئه) ، فرب سائل يسأل عن سبب تقديمنا تأثر السمع قبل تأثر البصر بالقرآن؟ والعلة في ذلك مايلي :

١ - إن الله - سبحانه وتعالى - ذكر السمع قبل البصر في القرآن الكريم ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[٢٧] .

٢ - إن الرسول - ﷺ - سمع القرآن أولا من جبريل - عليه السلام - ، فتأثر به ، فقال : زملوني ، زملوني ، دثروني ، دثروني .

٣ - ولربما كان السامع ، أو المتلقي أكثر تأثرا من القاريء ، وذلك لانشغال القاريء بإبصار الحرزوف ، وحرصه على اتباع قواعد القراءة الصحيحة ، حسب قواعد علم القرآءت القرآنية .

وقولي : (ولايستطيع السامع أو القاريء مقاومته ودفعه) فهذا هو الإعجاز التأثيري للقرآن ، أن - يقهر بما فيه من وسائل تأثيرية - النفس الإنسانية ، فيتركها في حالة مغايرة لما كانت عليه قبل سماعه وقراءته ، إما خضوعا ورغبة ، كما هو في حالة المؤمنين به ، وإما نفورا وإعراضا ، كما هو واضح عند الكافرين به[٢٨] .

وقولي : (ولايقتصر ذلك على المؤمنين به) فإن المؤمنين بالقرآن إعجازه التأثيري في حالهم ظاهر جلى ؛ وإنما معجزته التأثيرية الخالدة الباقية التي يتحدى بها الأجيال تتجلى : فيمن كانوا كافرين به ، محاربين أوامره ونواهيه ، فإذا بالقرآن يؤثر فيهم فيقهرهم ، ويقودهم إلى الإسلام على الرغم منهم ، فيخضعون له ، ويستسلمون لأوامره : كعمر بن الخطاب ، وأبي ذر ، وعبدالله بن سلام ، وغيرهم - رضي الله عنهم - . وفيمن سمعه ولم يؤمن به : كالوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وكثير من كفار قريش ، ووفد المباهلة النجراني النصراني ، ومن كان على شاكلة ذلك .

---

(٢٧) سورة الإسراء آيه :٣٦ .

(٢٨) ولعله من الواضح أن المقصود بالنفور هنا : أن القرآن لم يكن سبب نفورهم ، وإنما هناك موانع نفسية ، مثل : الكبر ، والعناد ، والاستكبار ، وغير ذلك ، هي التي جعلتهم ينفرون منه . وعلى هذا تفهم كل العبارات التي توحي بهذا المعنى فيما بعد .

المبحث الثاني

ثانيا: نشأة الإعجاز التأثيري وتطوره

نستطيع أن نميز بين مرحلتين من مراحل نشأة الإعجاز التأثيري وتطوره :

المرحلة الأولى : مرحلة النشأة

تتصل نشأة هذا الوجه الإعجازي للقرآن بنزول القرآن الكريم نفسه اتصالا مباشرا ، وذلك لما يلي :

أولاً : أمر الله سبحانه وتعالى - في كتابه بالحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم ، ليكون ذلك عونا على دعوتهم للإسلام ، قال ابن حجر : (ولاخلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز ، لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[٢٩] . فلو لا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ، ولايكون حجة إلا وهو معجزة[٣٠] والمعجزة لابد لها من أثر فيمن تعجزه ، إما تصديقا أو تكذيبا .

ثانياً : ماورد في كتب السيرة والتفسير وأغلب الكتب التي تتناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله - ﷺ - لإعجاز القرآن التأثيري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام ، وظهور أثر هذه الوسيلة الفعال في كل من استعملت معه ، إما قبولا واعتناقا للإسلام ، أو نفورا وإعراضا عنه ، أو إقرارا بإعجاز القرآن في حاله ، كما سبق أن بينا في السطور السابقة .

ثالثا : إن الإعجاز التأثيري في هذه المرحلة - و هي مرحلة النشأة الأولى - يتمثل في الممارسة والسلوك العملي للإعجاز نفسه ، دون التأليف فيه ، أو

---

(٢٩) سورة التوبة ، آيه :٦) .

(٣٠) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - ١١٧ طبعة الحلبي ١٣٧٠هـ .

وضع قواعد أو أصول له ، وإنما تدل الشواهد الكثيرة على ممارسته في حياة المسلمين .

وبعد قرنين من الزمان - وفي أوائل القرن الثالث الهجري - أشار الجاحظ (ت٢٥٥) في كتابه : (البيان والتبيين) - من خلال حديثه عن الإعجاز البلاغي للقرآن - إشارات خاطفة للإعجاز التأثيري[٣١] ، وكذلك فعل الرماني في منتصف القرن الرابع (ت٣٨٦)[٣٢] .

المرحلة الثانية : مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثيري :

سنقف في هذه المرحلة مع عدد من العلماء القدامى والمحدثين ، ممن تحدثوا عن الإعجاز التأثيري : فمن العلماء القدامى : (الخطابي ، والجرجاني ، وابن القيم) .

ومن العلماء المحدثين : (د .عبدالكريم الخطيب ، الإمام/ محمد الغزالي) .

١ - **الخطابي** : (أبوسليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي - ، ت٣٨٨هـ) .

يبدأ الخطابي رسالته (بيان إعجاز القرآن) بالاعتراف بتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته[٣٣] ، ثم بدأ في ذكر وجوه الإعجاز فحددها . وفي نهاية رسالته عاد الخطابي إلى تأكيد رأيه في الإعجاز القرآني ، وذلك باختياره الإعجاز التأثيري كأهم وجه من وجوه الإعجاز . فقال : (قلت : في إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلايكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في

---

(٣١) البيان والتبيين ١/ ٢٧٣ - للجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون - دار الجيل بيروت ١٤١٠هـ .

(٣٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٧٦ .

(٣٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢١ .

النفوس ، فإنك لاتسمع كلاما غير القرآن - منظوما ولامنثورا - إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى مايخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه ، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول - ﷺ - من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيمانا .

خرج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يريد رسول الله - ﷺ - ويعمد إلى قتله ، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ (سورة طه) ، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن .

وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله - ﷺ - ، ليوقفوه على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله - ﷺ - آيات من (حم السجدة) فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا : أقبل أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به . ولما قرأ رسول الله - ﷺ - القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا ، وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن . وقد روي عن بعضهم أنه قال : فتحت الأمصار بالسيوف ، وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾(٣٤) ، ومصداق ماوصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى :

(٣٤) سورة الجن ، آيه : ١ .

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(٣٥) ، وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٣٦) ، وغير ذلك في آي ذوات عدد منه ،وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهو من عظيم آياته ، ودلائل معجزاته(٣٧) .

وبعد هذا العرض لرأي الخطابي في الإعجاز التأثيري فإننا نستنج منه مايلي :

١ - إن الخطابي يعترف في أول رسالته بتعذر تحديد وجه الإعجاز ، على الرغم من إقرار جميع علماء البلاغة بوجوده .

٢ - مناقشته لبعض وجوه الإعجاز ، ونقدها وعدم قبوله إياها كوجه من وجوه الإعجاز .

٣ - انتهى الخطابي ببيان مجمل لرأيه في إعجاز القرآن الذي سبق أن فصله بأنه (صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، وهو ماأسميته بـ (الإعجاز التأثيري للقرآن) أخذا عن تعريف الخطابي لهذا الوجه من وجوه الإعجاز .

٤ - وكل ماذكرته آنفا يعتبر دليلا على اختيار الخطابي لهذا الوجه من وجوه الإعجاز كأساس لإعجاز القرآن ، وقد أكد هذا بكل ماذكره من نماذج تطبيقة من القرآن أو السيرة .

٥ - ومن هنا جعلت رأي الخطابي هذا بداية للمرحلة الثانية في نشأة هذا الوجه وتطوره ، وأسَّت عليه هذا البحث في تسميته ودراسته .

٦ - ولئن كان الخطابي مسبوقا بالإشارة إلى الأثر النفسي للكلام المسموع عموما والقرآن خصوصا ، إلا أنه يعتبر من وجهة نظري أول من تناول هذا

(٣٥) سورة الحشر ، ايه :٢١) . (٣٦) سورة الزمر ، آيه :٢٣) .

(٣٧) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٠ ، ٧١ .

الأثر بصورة علمية واضحة ومحددة ، وذلك بتأصيله هذا الوجه من وجوه الإعجاز (الإعجاز التأثري) بأدلة قرآنية ، ومواقف عن السيرة النبوية .

٢ - الإعجاز التأثيري عند عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧٣ هـ)[٣٨] :

نبه الدكتور محمد بركات أبوعلي إلى مسألة هامة في بحثنا هذا ، وهي : تأثر عبدالقاهر بسلفه الخطابي في نظرته لإعجاز القرآن ، وقد سبق منا الإشارة إلى أن الخطابي يرى أن الإعجاز التأثيري للقرآن هو أول وجوه الإعجاز وأهمها جميعا . يقول الدكتور محمد بركات : (مما تميز به الخطابي : أنه أبرز وجها للإعجاز ، وهو الأثر النفسي ، وأصبح هذا الرأي أساساً من أسس نظرية عبدالقاهر في النظم في كتبه وكتب بعض المعاصرين في الأدب . . .)[٣٩] .

وذكر بعض الباحثين : أن عبدالقاهر الجرجاني كان يعتمد على ذوقه الوجداني في حديثه عن إعجاز القرآن ، ومنهم على سبيل المثال : الأستاذ سيد قطب في حديثه عن إعجاز القرآن ، وعرضه لموقف البلاغيين ، وكيف أنهم انشغلوا بقضية اللفظ والمعنى ، حتي وصلوا في التقسيم والتبويب إلى درجة من التعقيد لا تطاق ، ولم يستثن منهم سوى عبدالقاهر ، لأنه تذوق النص القرآني ، وتفاعل وتأثر به تأثرا واضحا[٤٠] .

والدكتور عبدالكريم الخطيب عندما تعرض لموقف عبدالقاهر من قضية الإعجاز فقال عنه : (إن عبدالقاهر لم يتحدث عن الإعجاز حديثا مباشرا ، وإنما جعل وجه الإعجاز عنده يقوم على الذوق الوجداني) . وقال أيضاً : (ولو لم يكن لعبدالقاهر فضل هنا إلا أنه دفع عن البلاغة هذا المفهوم الخاطيء الذي

---

(٣٨) هو أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ، السني الشافعي ، صاحب مصنفات كثيرة في الفقه ، والنحو . والأدب ، والبلاغة ، توفي على الراجح عام ٤٧٣ هـ راجع ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٦٣ وغيرها .

(٣٩) في إعجاز القرآن ص١٠٨ .

(٤٠) التصوير الفني في القرآن ص ٢١ ، ٢٢ - دار الشروق - مصر ١٤٠٧هـ .

كان يذهب مذاهب الجدل اللفظي البعيد عن الذوق الجمالي والجائر على حظ العاطفة والوجدان منها - لو لم يكن له إلا هذا لكان ذلك فضلا كبير يعرف له ، ويجمد من أجله[٤١] ونستطيع أن نستنبط من هذه الأقوال : أن عبدالقاهر كان له رأي في مسألة الإعجاز التأثيري . وقد حاولت البحث فيما تحدث به عن هذا الوجه فوجدته عندما حاول التدليل على عجز العرب أمام القرآن ، وذلك من خلال أقوالهم ، وذكر أمثلة ثلاثة ، هي :

أ - حديث الوليد بن المغيرة . وذكر فيه قوله عن القرآن : (والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، ومأأنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل) .

ب - حديث عتبة بن ربيعة : وذكر فيه قوله عن القرآن أيضاً : (إنى قد سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . .)

ج - حديث إسلام أبي ذر وأخيه أنيس ، وقوله عن القرآن كلاما قريبا من هذا[٤٢] .

وهذه الأمثلة الثلاثة التي ساقها الجرجاني يدلل بها على حال العرب العاجزة أمام القرآن لتدل على أنه يرى الإعجاز التأثيري من أهم وجوه الإعجاز القرآني . وذلك من وجهين .

١ - إن كل من تحدث عن إعجاز القرآن من السابقين له أو اللاحقين عليه وأشار إلى هذا الوجه إشارة واضحة - كالخطابي - مثلا - ، أو غير واضحة - كالباقلاني[٤٣] - إلا واستشهد بها ، لدلالتها على مدى أثر القرآن في نفس من سمعه أو قرأه .

---

(٤١) - الإعجاز في دراسات السابقين ص٢٧٩ .

(٤٢) الرسالة الشافية في إعجاز القرآن لعبدالقاهر الجرجاني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص١٢٢ .

(٤٣) سبقت الإشارة إلى رأي الخطابي ، وأما الباقلاني فقد ذكر ذلك وأكثر منه في حديثه عن الإعجاز البلاغي للقرآن ، في كتابه (إعجاز القرآن) المطبوع على حاشية كتاب الإتقان للسيوطي ١/ ٣٧ ،٣٨ - طبعة الحلبي - الطبعة الثالثة - مصر ١٣٧٠هـ (بتصرف) .

٢ - إن بعض الشواهد القرآنية التي ذكرها عبدالقاهر في حديثه عن النظم - كوجه للإعجاز القرآني - قد حللها تحليلا يبرز من خلاله مدى الأثر النفسي على من يقرؤها أو يسمعها . وإليك بعضها ، لترى صدق ماذهبنا إليه .

يقول عبدالقاهر في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ... ﴾[٤٤] : ليس بخاف أن لتقدم الشركاء حسنا وروعة . ومأخذا في القلوب . أنت لاتجد شيئا منه إذا أخرت فقلت : (وجعلوا الجن شركاء لله) وإنك لترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة . والمنظر الرائق ، والحسن الباهر ، إلى الشيء الغفل ، الذي لاتحظى منه بكثير طائل . ولاتصير النفس به إلى حاصل[٤٥] .

وفي مثال آخر يقول عند قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[٤٦] : (وإذا أنت راجعت نفسك ، وأذكيت حسك ، وجدت لهذا التنكير ، وإن قيل : (على حياة) ولم يقل (على الحياة) حسنا وروعة ، ولطف موقع ، لايقادر قدره ، وتجدك تعدم هذا التعريف وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما)[٤٧] .

٣ - وأخيرا فقد جعل عبدالقاهر وجه الإعجاز القرآني في نظمه ، وجعل النظم علة من أهم علل التأثير في النص القرآني في سامعه وقارئه ، يقول الجرجاني : (ومن هذا الذي يرضى من نفسه أن يزعم أن البرهان الذي بان لهم - أي للعرب - والأمر الذي بهرهم ، والهيبة التي ملأت صدورهم ، والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم حتى قالوا : (إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر) إنما كان لشيء راعهم من موقع حركاته ، ومن

(٤٤) سورة الأنعام ، آيه : ١٠٠ .
(٤٥) دلائل الإعجاز لعبدالقاهر ص٢٨٢ ، ٢٢١ .
(٤٦) سورة البقرة ، آيه : ٩٦ .
(٤٧) دلائل الإعجاز لعبدالقاهر ص٢٨٢ ، ٢٢١ .

ترتيبه وبيان سكناته ، أو الفواصل في أواخر آياته؟ من أين تليق هذه الصفة وهذا التشييبه بذلك؟ أم ترى أن ابن مسعود ، حين قال في صفة القرآن : (لايتفه ولايتشان) ! ، وقال : إذا وقعت في ال .حم) وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن) ، قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ، ومن أجل الفواصل في أخريات الآيات؟)[٤٨] .

٣ - ابن قيم الجوزية (ت٧٥١)هـ ورأيه في الإعجاز التأثيري[٤٩] :

في كتابه (الفوائد)[٥٠] شرح ابن القيم مسألة تأثير القرآن على سامعه وقارئه فقال : (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه[٥١] ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[٥٢] ، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه ، وأدله على المراد . فقوله (إن في ذلك لذكرى) إشارة إلى ماتقدم من أول السورة إلى هاهنا ، وهذا هو المؤثر ، وقوله : (من كان له قلب) فهذا هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله ، كما قال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[٥٣] . أي حي القلب . وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَلْقَى

---

(٤٨) المصدر السابق ص٢٢٥ .

(٤٩) يعتبر القاضي عياض ممن تناولوا مسألة الإعجاز التأثيري - قبل ابن القيم - بصورة مجملة ، انظر كتابه الشفا في تعرف حقوق المصطفى ١/ ٢١٧ ، وشرح الشفا لنور الدين القاري ٢/ ٧٦٢ - ٨٤٥ .

(٥٠) كتاب (الفوائد) للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية (ت٧٥١) تحقيق محمد عثمان الخشب - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان الطبعة الثالثة - ١٤١٥هـ ، وهو غير كتاب (الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان) الذي لاتصح نسبته لابن القيم .

(٥١) الضمير في لفظة (منه) يعود إلى الله عزوجل وفي (إليه) يعود إلى المخاطب ، بفتح الطاء .

(٥٢) سورة ق ، آيه :٣٧ .

(٥٣) سورة يسن ، آيه٦٩ .

ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ (٥٤) أي وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه ، إلى مايقال له ، وهذا شرط التأثير بالكلام . وقوله : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب ، حاضراً غير غائب . قال ابن قتيبة(٥٥) : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولاساه ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل مايقال له ، والنظر فيه وتأمله .

فإذا حصل المؤثر ، وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر ، وهو الانتفاع بالذكر .

ثم يقول : (فإن قيل : إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه الأشياء ، فما وجه دخول أداة (أو) في قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ ، والموضع موضع واو الجمع ، لاموضع (أو) التي هي لأحد الشيئين؟ قيل : هذا سؤال جيد . والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام (بأو) باعتبار حال المخاطب المدعو ، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه ، تام الفطرة ، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن ، وأنه من الحق ، وشهد قلبه بما أخبر القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قال فيهم القرآن : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾(٥٦) .

وقال في حقهم : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ

(٥٤) سورة ق ، آيه :٣٧ .

(٥٥) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . أبومحمد (٢٧٦هـ) من المصنفين الكثرين . أنظر وفيات الأعيان ١/ ٢٥١ ، والأعلام ٤/ ١٣٧ .

(٥٦) سورة سبأ ، آيه :٦ .

وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾(٥٧) . فهذا نور الفطرة على نور الوحي ، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي . ويقول ابن القيم : (ومن الناس من لايكون تام الاستعداد ، واعي القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام ، وقلبه لتأمله والتفكر فيه ، وتعقل معانية ، فيعلم حينئذ أنه الحق)(٥٨) .

وبعد ، فقد آثرت أن أنقل كلام ابن القيم بتمامه ، حتى نتبين من خلاله رؤيته في مسألة التأثير ، وكيفية حدوثها ، وبيان أركانها وجوانبها ، فإنه يرى أنها تقوم على أركان عدة :

أ - المؤثر القوي ، (والمقصود به هنا : القرآن الكريم) .

ب - أداتا التلقي ، وهما : (القلب والسمع) .

ج - رغبة السامع في تفهم مايسمع وتعقله .

د - الخروج من شتى الموانع ، سواءاً كانت انحرافات عقائدية ، أم شبهات فكرية ، أو نزعات شهوانية ، أو مكانة أدبية ، أو منزلة اجتماعية ، أو غير ذلك .

ومن الملاحظ أن ابن القيم هنا يتحدث عن دعوة المسلم للانتفاع بالقرآن ، ولاينص على ذكر الكافر ، ولذلك فإنه لايكشف عن الجانب الأهم في إعجاز القرآن التأثيري . ألا وهو : أثره على الكافر .

وبعد أن عرضنا رأي بعض العلماء من الأقدمين عن الإعجاز التأثيري

---

(٥٧) سورة النور ، آيه : ٣٥ .

(٥٨) الفوائد ص ١٥-١٨ (بتصرف يسير) .

نعرض لرأي عالمين من العلماء المحدثين حول هذا الوجه من وجوه الإعجاز ، لنتين مراحل تطوره .

٤ - الدكتور عبدالكريم الخطيب ورأيه في الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم :

تحدث الدكتور عبدالكريم الخطيب عن إعجاز القرآن الكريم - بصفة عامة - حديثا طويلا جدا ، متناولا إياه من خلال آراء علماء البلاغة الذين تناولوا وجوهه المتعددة ، ووقف أمام وجه الإعجاز التأثيري للقرآن وقفات دقيقة ، نكاد نجزم من خلالها أنه يرجحه على سائر وجوه الإعجاز الأخرى ، فنراه يحاول أن يكشف عن سر تأثير القرآن فيمن يسمعه من المؤمنين والكافرين على سواء . فيقول :

(إن كلمات القرآن التي كانت على فم الناس ، كان لها رحلة إلى الملأ الأعلى من الأرض إلى السماء من أفواه الناس إلى عالم الروح ، والحق والنور ، وهناك في هذا العالم - عالم الروح والحق والنور - عاشت تلك الكلمات دهرا طويلا بين ملائكة ، وولدان ، وحور ، فنفضت عليها هذه الحياة الجديدة روحا من روحها ، وجلالا من جلالها ، ونورا من نورها ، حتى إذا أذن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجها إلى الأرض وتلقى بأفواه الناس مرة أخرى ، وتطرق أسماعهم ، وتتصل بعقولهم وقلوبهم ، لم ينكروا شيئا من وجودها ، وإن سرى إليهم من هذا الوجود مايخطف الأبصار ويخلب الألباب ، فالمؤمنون في شوق متجدد معه . وفي خير متصل منه ، وفي عطاء موصول من ثمره ، كلما مدوا أيديهم إليه قطفوا من أدبه أدبا عاليا ، ومن علمه علما نافعا ، ومن شريعته دينا قيما ، وغير المؤمنين في عجب من أمره ودهش . .يتناولونه بألسنة حداد ، ويرمونه بسهام مسنونة ، وبكيد عظيم . فما يصل إليه من كيدهم شيء)[٥٩] .

(٥٩)الإعجاز في دراسات السابقين د .عبدالكريم الخطيب ، ص٦٨ .

إن العبارة السابقة يحاول فيها الخطيب أن يضع أيدينا علي هذا السر الذي جعل لكلمات القرآن على من يسمعه من الأثر الواضح مالانجده مما نسمعه من كلام آخر ، فكلمات القرآن قد رحلت إلى الملأ الأعلى حينا من الزمن ، أعطاها هذا الرحيل سراً يخطف الأبصار ، ويخلب الألباب ، ويجعل المؤمنين به في شوق دائم لسماعه ، وغير المؤمنين في عجب ودهش من أمره .

ويقول الدكتور الخطيب - معلقا على كلام الإمام الخطابي عن الإعجاز التأثيري للقرآن ، والذي سبق لنا ذكره ، والذي أثبتنا أنه وجه إعجاز القرآن عنده- : (وهذا الوجه من وجوه الإعجاز هو - فيما ترى - المعجزة القائمة في القرآن أبدا ، الحاضرة في كل حين ، وهي التي تسع الناس جميعا ، عالمهم وجاهلهم ، عربيهم وأعجميهم ، إنسهم وجنهم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾(٦٠)(٦١) .

ويعقب الدكتور الخطيب على ماقاله القاضي عياض عن الإعجاز التأثيري بقوله : (وهذا الوجه - في رأينا - عمدة وجوه الإعجاز في القرآن ، فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته هي منال إعجازه ، وهي المعجزة القائمة أبد الدهر ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما يكون ذلك من حديثنا في إعجاز القرآن بعد هذا إن شاء الله ، وقد رأيت أن القاضي عياض قد جعل هذا الوجه حاشية في وجوه الإعجاز . وهو الوجه الذي من حقه - في رأينا - أن يكون وجه الإعجاز وحده)(٦٢) .

ويعقب على قول السكاكي : (اعلم أن الإعجاز يدرك ، ولايمكن وصفه ، كاستقامة الوزن ، تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة . وكما يدرك طيب

---

(٦٠) سورة الجن ، آيه : ١ .

(٦١-٦٢) المصدر السابق ، ص١٩٣ .

النغم العارض للصوت ، ولايدرك تحصيله لغير ذي الفطرة السليمة) - بقوله - : (ومايقول السكاكي عن إعجاز القرآن - هنا - هو مقطع القول كله في هذا الأمر ، إذ ليس الإعجاز الذي رآه الناس إلا روعة تملكهم ، وإلا جلالا يحيط بهم ، وماكان لكلام أن يصور حقيقة الروعة ، أو يمسك مواقع الجلال ، إنها معان تدرك ، تستشعر ، ولاتوصف ! ولهذا فإن الناس مع القرآن على منازل ودرجات وحظوظ . . .)[٦٣] .

ويقول د . الخطيب تعقيبا على كلام ابن عطية عن وجوه الإعجاز : (وهذا هو سر الإعجاز وعظمته ، كلمات هن من كلام الناس ، ثم يفعلن هذا الأمر العجيب في النفوس ، ويقمن هذا السلطان القاهر على القلوب)[٦٤] .

وبعد ، فهل لنا أن نجمل القول عن رأي الدكتور الخطيب في الإعجاز التأثيري؟ فلعلك توافقني فيما ذهبت إليه من إجابة على هذا التساؤل من أنه يرى الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم أهم وجوه الإعجاز وأولها ، ونجمل أدلتنا - هنا - بعد أن بسطناها آنفا ، فنقول :

كان حديث الدكتور عن الإعجاز يرتكز بصورة أساسية على مايحدثه القرآن من أثر في النفوس ، كما رأينا ذلك واضحا في مقارنته بين أثر كلام البشر وكلمات القرآن على النفوس البشرية المؤمنة بالقرآن ، والمنكرة له على سواء[٦٥] .

إن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ومواقف الصحابة . بل ومافي واقع الحياة البشرية في عصرنا الحالي وكل ماذكره الدكتور تثبت وترصد مظاهر هذا الوجه من وجوه الإعجاز في حياة البشر وتؤكد اختياره له[٦٦] .

---

(٦٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢١ .
(٦٥-٦٦) الإعجاز في دراسات السابقين ص٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

إن الدكتور ذهب إلى أكثر من الاختيار لوجه الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم إلى ماهو أبعد من ذلك ، عندما أخذ يبين مزايا هذا الوجه دون سواه ، فهذا الوجه يمتاز عن سائر وجوه الإعجاز بأنه :

أ - المعجزة القائمة في كل حين .

ب - أنها تسع الناس جميعا عالمهم وجاهلهم .

ج - أنها تسعهم بكل لغاتهم ، عربيهم وعجميهم .

د - أنها لاتقتصر على الإنس وحدهم ، بل وتسع الجن أيضا .

د - وننتقل بعد ذلك إلى الشيخ محمد الغزالي ، لنرى رأيه في الإعجاز التأثيري :

٥ - الشيخ/ محمد الغزالي السقا (ت ١٤١٦هـ) ورأيه في الإعجاز التأثيري) :

في كتابه (نظرات في القرآن) يعقد الشيخ/ الغزالي فصلا كاملا عن الإعجاز في القرآن الكريم ، ويرى فيه أن إعجاز القرآن يبرز في وجوه ثلاثة : الإعجاز النفسي ، والإعجاز العلمي ، والإعجاز البياني .

ويمكن أن نفهم حديث الإمام الغزالي عن الإعجاز النفسي - التأثيري في رأينا - متمثلا في نقاط أربع :

١ - مكانة الإعجاز التأثري .

٢ - تأثير القرآن في المؤمن والكافر .

٣ - من وسائل تأثير القرآن : تقديم الدليل المفحم على كل شبهة - تلوين الحديث - تصريف الأمثال ، قهر برودة الإلف ، تعرية النفوس ، التغلب على مشاعر الملل .

٤ - موانع التأثر بالقرآن .

وحديث إمامنا عن الإعجاز النفسي (التأثيري) أتى مرسلا ، دالا علي سجية مؤلفه ، يحمل في طواياه هذه النقاط السابقة التي حاولت استخلاصها من حديثه العذب الذي لاغنى لباحث في إعجاز القرآن عن مطالته والارتواء من نبعه الفياض . ونتلمس النقطة الأولى أول حديث الإمام عن الإعجاز النفسي ، فبعد أن يتحدث عما يعرض له القرآن من عقائد دينية وأحكام تشريعية ، وحقائق علمية يقول :

(قد تجد في القرآن حقيقة مفردة ، ولكن هذه الحقيقة تظهر في ألف ثوب ، وتتوزع تحت عناوين شتى ، كما تذوق السكر في عشرات الطعوم والفواكه ، وهذا التكرار مقصود ، وإن لم تزد به الحقيقة العلمية في مفهومها . ذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط ، بل بناء الأفكار والمشاعر ، والتقاط مؤلفه آخر ماتختلقه اللجاجة من شبهات وتعلات ، ثم الكر عليها بالحجج الدامغة ، حتى تبقى النفس وليس أمامها مفر من الخضوع لمفهومها للحق والاستكانة لله . وعندي أن قدرا من إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى هذا . . .)[٦٧] .

تلك هي مكانة الإعجاز التأثيري عند الإمام ، فإن كان للقرآن الكريم وجوه إعجاز أخرى غير أنها لاتصل في قدرها وأهميتها إلى الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم في نفس الإنسان . ولكن هل يتأثر كل إنسان بالقرآن؟ أم يقتصر هذا التأثير على المؤمنين به؟ ويرد أمامنا على هذا التساؤل بما يؤكد مكانة الإعجاز التأثيري بين وجوه الإعجاز ، وعدم اقتصاره على نفس إنسانية دون أخرى ، فيقول :

(فما أظن أمرءاً سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه

(٦٧) نظرات في القرآن ص١٢٣ - محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة - القاهرة د .ت .

لم يتأثر به . قد تقول : ولم يتأثر به؟ والجواب . إنه مامن من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية - إلا ويعرض له القرآن بالهداية وسداد التوجيه . ماأكثر مايفر المرء من نفسه ، وماأكثر الذين يمضون في سبل الحياة هائمين على وجوههم . ماتمسكهم بالدنيا إلا ضرورات المادة فحسب .

إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى أولئك جميعا ، وكأنه عرف ضائقة كل ذي ضيق ، وزلة كل ذي زلل ، ثم تكفل بإزاحتها كلها ، كما يعرف الراعي أين تأهت خرافه . فهو يجمعها من هنا وهناك ، لايغيب عن بصره ولاعن عطفه واحد منهم .

وذلك سر التعميم في قوله عزوجل : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾(٦٨) حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله . إنهم يقضون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل ، قد لاينخلع من مجونه الغالب عليه ، ولكنه يؤخذ فترة مايصدق العاطفة الباكية . أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق ، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولايرون ، إنه قد يرجع مستهزئا ، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها .

والمنكرون من هذا النوع لايطعمون في التأثير النفساني للقرآن الكريم ، كما أن العميان لايطعنون في قيمة الأشعة . ولذا يقول الله عزوجل : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾(٦٩)(٧٠) ، وبذلك يكون الشيخ قد تناول النقطة الثانية التي يتأكد من خلالها إعجاز القرآن التأثيري في المؤمنين والكافرين به على سواء . وفي النقطة الثالثة يبرز الإمام في بعض أسرار التأثير القراني في الإنسان فيقول :

---

(٦٨) سورة الكهف ، آيه : ٥٤ .

(٦٩) سورة الزمر ، آيه : ٢٣ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص١٢٤ .

(إن القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوقه في الجدل ، أي بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة ، وتسليط البرهان القاهر على كل حجة) فالنكوص عن الإيمان بعد قراءة القرآن يكون كفرا عن تجاهل لاعن جهل ، ومن تقصير لامن قصور . والجدل آفة نفسية وعقلية معا ، والنشاط الذهني للمجادل يمده حراك نفسي خفي ، قلما يهدأ بسهولة . وجماهير البشر لديها من أسباب الجدل مايفوق الحصر ، ذلك أنهم يرتبطون بما ألفوا أنفسهم عليه من أديان وآراء ومذاهب ارتباطا شديدا ، ويصعب عليهم الإحساس بأنهم وآباءهم كانوا في ضلال - مثلا - ، فإذا جاءت رسالة عامة تمزق الغشاوات عن العيون وتكشف للناس مالم يكونوا يعرفون . فلاتستغربن ماتلقى من الإنكار والتوقف ، أو التكذيب والمعارضة . وأسلوب القرآن في استلال الجفوة من النفس ، إلقاء الصواب في الفكر ، أوفى على الغاية في هذا المضمار . ذلك أنه لون حديثه للسامعين تلوينا يمزج بين إيقاظ العقل والضمير معا ، ثم تابع سوقه متابعة إن أفلت المرء منها أولاً لم يفلت آخرا . وذلك هو تصريف الأمثال للناس .

إنه أحاطه بسلسلة من المغريات المنوعة ، لامعدى له من الركون إلى إحداها ، أو معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى ، لابد أن يستسلم القفل عند واحد منها . وتراكيب القرآن - التي تنتهي حتما بهذه النتيجة - تستحق التأمل الطويل . ولسنا هنا بصدد الكلام عن بلاغتها ، بل بصدد البحث عن المعاني التي تألفت منها ، فكان من اجتماعها هذا الأثر الساحر»[٧١] .

ويستكمل الشيخ/ الغزالي بيانه عن وسائل القرآن التي تسبب التأثير في النفس الإنسانية فيقول :

---

(٧١) المصدر السابق ، ص١٢٧-١٢٩ .

إن طبيعة هذا القرآن لاتلبث أن تقهر برودة الإلف ، وطول المعرفة ، فتتعرى أمامه النفوس ، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها ، وتنزعج من ذهولها وركودها ، وتجد نفسها أمام الله - جل شأنه - يحيطها ويناقشها ، ويعلمها ويؤدبها ، فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلن العميق إلا أن تخشع وتصيخ(٧٢) ثم يقول :

وكما قهر القرآن نوازع الجدل في الإنسان وسكن لجاجته ، تغلب على مشاعر الملل فيه ، وأمده بنشاط لاينفد . والجدل غير الملل ، هذا تحرك ذهني ، قد يجسد الأوهام ، ويحولها إلى حقائق ، وهذا موات عاطفي ، قد يجمد المشاعر ، فما تكاد تتأثر بأخطر الحقائق ، وكثير من الناس يصلون في حياتهم العادية إلى هذه المنزلة من الركود العاطفي ، فنجد لديهم برودا غريبا بإزاء المثيرات العاصفة ، لاعن ثبات وجلادة ، بل عن موت قلوبهم ، وشلل حواسهم .

والقرآن الكريم - في تحدثه للنفس الإنسانية - حارب هذا الملل وأقصاه عنها إقصاء ، وعمل على تجديد حياتهم بين الحين والحين ، حتى إنه ليمكنها أن تستقبل في كل يوم ميلادا جديدا . ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾(٧٣) .

ومن وسائل القرآن التأثيرية : الترغيب والترهيب . يقول الغزالي :

(والشعور بالرغبة والرهبة والرقة تعمرك وأنت تستمع إلى قصص الأولين والآخرين تروى بلسان الحق ، ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم ، والمغازي والعبر ، تقشعر منه الجلود(٧٤) .

(٧٢) المصدر السابق ، ص١٢٧-١٢٩ .
(٧٣) سورة طه ، آيه :١١٣ .
(٧٤) المصدر السابق ، ص١٢٧-١٢٩ .

موانع تأثر النفس البشرية بالقرآن والانفعال به :

وأخيرا فإننا نستطيع أن نلتقط من كلام الشيخ/ الغزالي بعض رؤاه العلمية العميقة التي يكشف من خلالها موانع تأثر النفوس البشرية بالقرآن والانفعال به ، وهو ماأشرنا إليه سابقا في النقطة الرابعة ، يقول الغزالي فيما يؤكد هذه النقطة :

إن إلفك للشيء قد يخفي مافيه من أسرار ، ويصرفك عن اكتشافها . وكثيرا ماتتلوا آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه في الطريق ، ملامح نراها ، قد تكون دميمة ، وقد تكون وسيمة ، تمر أشكالها بالعين ، فما تثبت على أحدها إلا قليلا وفي ذهول ، لأن المرء مشغول - بشأنه الخاص - عن دراسة القدرة العليا في نسج هذه العيون ، وغرس هذه الرؤوس ، وصوغ تلك الشفاه ، وإحكام ماتنفرج عنه من أسنان ، وماتؤدي إليه من أجهزة دوارة ، لاتقف لحظة ، إننا نقرأ القرآن فيحجبنا - ابتداء - عن رؤية إعجازه : أنه كلام من جنس مانعرف ، وحروف من جنس ماننطق ، فنمضي في القراءة دون حس كامل بالحقيقة(٧٥) .

فالشيخ/ الغزالي قد جعل وجه الإعجاز النفسي (التأثيري عندنا) مقدما على وجوه الإعجاز جميعا ، وعلى وجه الإعجاز البياني الذي كان يتصدر وجوه الإعجاز عند السابقين غالبا ، وقد عرضت من كلام الغزالي نفسه مايربط بين الوجهين رباطا وثيقا ، بل ويجعل الإعجاز البياني - في رأيي - هو المقدمة للإعجاز التأثيري ، لكن اهتمام الغزالي بالإعجاز التأثيري جعله يضعه في هذه المكانة ، يقدمه بها على سواه .

---

(٧٥) المصدر السابق ، ص١٢٨ .

وتبين لنا أيضا أنه تناول الإعجاز التأثيري من جوانب أربعة ، ولعل أهمها جميعا هو بيان مافي القرآن من وسائل تأثيرية ، والتي أورد فيها تفصيلا وتعليلا لم نره عند كثير من السابقين .

وأخيرا ، فلم يكن الحديث عن الإعجاز التأثيري قاصرا على هذين العالمين من علمائنا في العصر الحديث ، وإنما تحدث عنه الكثير منهم ، ومن أبرز من تناولوه : الأستاذ/ سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن ، والتصوير الفني في القرآن) حتى أنه روى قصة واقعية حدثت معه ، دلل بها على مدى تأثير القرآن على غير المؤمنين به ، وبين في مواضع كثيرة مدى أهمية هذا الوجه من وجوه الإعجاز(٧٦) .

(٧٦) راجع في ظلال القرآن ص٣/ ١٧٨٥ ، ١٧٨٦ ، ٣/ ١٧٨٧ ، والقصة التي ذكرها : قصة امرأة يوغسلافية ، سمعت القرآن لأول مرة فبكت بكاء شديدا ، تأثرا به ، على الرغم من عدم معرفتها للغته ولا لمعانيه ، وتفاصيلها في الظلال ٢/ ٨٢١ - دار الشروق ، الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ . وانظر التصوير الفني في القرآن ص ١ ، ٦ ، ٩-١٩ - مكتبة الشروق - مصر ١٤٠٧هـ ، وفي مجلة المجتمع الكويتية عدد (١٢٠) سنة ٢٧ ، في صفر ١٤١٧هـ بحث بعنوان (أثر القرآن علي قلوب الأمريكان) بقلم د .نجيب عبدالله الرفاعي ، أثبت من خلاله أثر سماع القرآن على الموجات الدماغية الأربعة لدى الإنسان .

المبحث الثالث

الإعجاز التأثيري من خلال بعض الآيات القرآنية وبعض المواقف من السيرة النبوية :

إن الإقرار بالعجز أمام اختيار آيات قرآنية معينة مؤثرة في النفس الإنسانية - دون سواها من ايات القرآن - أمر لايعد نقصا في البحث ، أو عيبا في الباحث ، وبخاصة إن كان هذا الباحث من المؤمنين أن القرآن كله (قليله وكثيره) مؤثر فيمن يسمعه أو يقرأه بصور متفاوته ، وبأشكال مختلفة ، فقد أتأثر أنا بآية تتحدث عن القدرة الإلهية في الكون والحياة ، وقد يتأثر آخر بآية تتحدث عن النار والجحيم والسعير ، ومافيها من غسلين وزقوم ، وقد يتأثر ثالث بما ذكره الله في جناته من النعيم والجنان ، وماأعده الله لعباده المؤمنين ، من مما لاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، ويتأثر رابع بالقوانين القرآنية المحكمة في مجال الحكم والأسرة ، والمجتمع والنساء ، والمواريث . . .الخ . ويتأثر خامس بالحقائق التاريخية الصادقة ، والنقل الإخباري المستوعب الصحيح ، ويتأثر سادس بالبلاغة المعجزة ، والكلمة الدقيقة ، والمعنى الشريف .

وهكذا ، فالقرآن لايترك نفسا إنسانية - أيا كانت - إلا ويتحدث معها عن ملكة من ملكاتها المتعددة ، سواءأ كانت فكرية عقلية ، أم وجدانية عاطفية ، أو سياسية ، أوعسكرية قيادية ، أو غير ذلك . ويأخذ هذا التأثير أشكالا متباينة أحيانا ، أو متسقة أحيانا أخرى ، فتأثر المشركين والكافرين يكون غالبا نفورا وإعراضا ، أو تغيرا في قسمات الوجه ، ناتجا عن عجز داخلي مفاجيء ، أو إلقاء للحجج الواهية التي يقصدون بها التعجيز لقارئه ، أو النيل من النص القرآني نفسه ، كما نرى عند اليهود والمنافقين ومن شاكلهم .

ويظهر تأثر المنافين بالقرآن في صورة خوف وحذر ، وتربص كذلك . وأما مع المؤمنين : فيختلف مظهر التأثر ، فكلهم يرق قلبه ، وينشرح صدره ، وتفيض عيناه بالدمع ، دلالة على الاستسلام والإيمان ، والعجز عن التعبير عما يجده في جوانحه من حاله نفسية جديدة لاعهد له بها . ومن هنا تأتي صعوبة الانتقاء لآيات قرآنية أكثر تأثيرا دون سواها ، إذ يتوقف ذلك على حالة المتلقي - أيضا - واستعداداته النفسيية ، وثقافته العلمية ، ومذاقاته الوجدانية ، وما إلى ذلك .

فلابد لنا - والأمر كذلك - أن نضع ضابطا - أراه غاية في البداية والتواضع - وهو وإن كان كذلك - فلعله يكون خطوة أولى على طريق البحث في هذا الوجه من وجوه الإعجاز للقرآن .

والمقياس أو الضابط الذي نقترحه لذلك : هو مانص عليه القرآن الكريم نفسه من مظاهر التأثر به في آياته ، مستأنسين في ذلك بما ورد في القرآن من آيات فيها لفظ (سمع ، أوذكر ، أوتلا) . وماسجلته بعض الآيات من مظاهر للتأثر في سامعها أو قارئها .

١ - مظاهر أثر القرآن على المؤمنين :

أ - من القرآن الكريم :

عندما نتتبع أثر كلام الله - القرآن - فيمن سمعه وتدبره من البشر فإننا نجد أن أول من يتأثر بكلامه هم من تلقوه ، وكلفهم الله ببلاغه للبشر ، وهم الأنبياء والرسل ، ولذلك يقول سبحانه - بعد أن تحدث عن من الأنبياء والرسل في سورة مريم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ

خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾[77] ، فهؤلاء إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم ، خضوعا واستكانة ، حمدا وشكرا على ماهم فيه من النعم العظيمة ، والبُكيّ جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم ، واتباعا لمنوالهم . ولما قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم سجد وقال : (هذا السجود فأين البكيّ) يريد البكاء[78] .

ويقول سيد قطب في تفسير الآية وأولئك النبيون ، ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم ، صفتهم البارزة : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ فهم أتقياء ، شديدوا الحساسية بالله ، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلاتسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ، ويخرون سجدا وبكيا[79]

والسجود حركة ظاهرية ، تعبر عن أعلى وأصدق درجات الانقياد والاستسلام والتذلل للمسجود له ، وأما البكاء : فهو تنفيس عن انفعالات داخلية شديدة ، يعجز صاحبها عن التعبير عنها ،ن فتعبر عيناه بالدمع ، وكان سيدنا محمد - ﷺ - أول المتأثرين بالقرآن الكريم ، تأثرا باطنيا وظاهريا ، وكفى سلوكه شاهدا على ذلك وبرهانا عليه .

فقد روى (مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه قال : رأيت رسول الله - ﷺ - يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء) ، الأزيز (بزايين) : صوت الرعد ، وغليان القدر)[80] ، ومارواه الأئمة عن عبدالله بن مسعود قال : قال النبي - ﷺ - : (اقرأ علي) فقرأت عليه سورة النساء ، حتي إذا بلغت

(٧٧) سورة مريم ،آيه :٥٨ .
(٧٨) تفسير ابن كثير ، ٣/ ١٢٧ .
(٧٩) الظلال ، ٤/ ٢٣١٤ .
(٨٠) تفسير القرطبي ، ١/ ١٣ .

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (٨١) ، فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان(٨٢) .

والمواقف والمواضع التي تبرز تأثر الرسول - ﷺ - بالقرآن كثيرة ، بيد أن ذلك يعد أمرا لاغرابة فيه ، ولاإعجازاً ، إذ كيف لايتأثر الرسول - ﷺ - بالقرآن وعليه أنزل؟ وقد رأى الملائكة ، وقد أعرج به إلى السماء ، وسمع صرير الأقلام ، ورأى من آيات ربه مارأى؟ فتأثره بالقرآن الكريم أمر لايحتاج إلى دليل أو برهان . وكان - ﷺ - يحرص على أن يغرس في أتباعه من المسلمين التأثر بالقرآن عند تلاوته ، فقد أمر المسلمين بالبكاء عند تلاوته ، فإن لم يجدوا بكاء فليتباكوا(٨٣) ، وامتثل المؤمنون لتوجيه الرسول - ﷺ - ففتحوا أذانهم وقلوبهم لآيات الله ، لتعمل فيها عملها ، تؤثر فيها ماشاء الله لها من تأثير ، وحال بينهم وبين كل مامن شأنه أن يمنع قلوبهم من التأثر بالقرآن . ولنتتبع بعض آياته التي عبرت عن ذلك وأظهرته :

١ - وجل في القلوب :

لقد حاز المؤمنون عند ربهم درجة سامقة رفيعة لتأثرهم بكتاب ربهم ، تأثرا عمليا صادقا ، له نتائجه في واقع حياتهم وحياة مجتمعهم . يقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (٨٤) ولنا مع هذه الآية بعض الوقفات :

الوقفة الأولى : ماهي حقيقة التأثر بذكر الله وتلاوة القرآن؟

هذه الحقيقة تتحدث عنها الصحابية الجليلة (أم الدرداء) من خلال تجربة

---

(٨١) سورة النساء ، آيه : ٤١ .

(٨٢) الحديث : صحيح ، أخرجه البخاري ، رقم ٥٠٤٩ ، ومسلم ، ٢/ ١٩٥ . وفي تفسير القرطبي ١٣/١ .

(٨٣) الترغيب والترهيب ، ٢/ ٣٣٩ للمنذري - دار ابن كثير - مصر - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، وأشار إلى ضعفه .

(٨٤) سورة الأنفال ، آيه : ٢ .

عاشتها متأثرة من آيات القرآن ، فوجل قلبها ، فقالت تصف هذا الوجل : (الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة؟ قال : بلى . قالت : إذا وجدت ذلك فادعوا الله عند ذلك ، فإن الدعاء يذهب ذلك[٨٥] .

يقول سيد قطب : إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر الله في أمر أو نهي (في القرآن) ، فيغشاه جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ، ويتمثل عظمة الله ومهابته ، إلى جانب تقصيره - هو - وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة .

الوقفة الثانية : ماهي مظاهر تأثرهم بالقرآن؟

يقول سيد قطب موضحا هذه المظاهر : فالقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن مايزيده إيمانا ومايانتهي به إلى الاطمئنان ، إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلاوساطة ، ولايحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ، ويحجب القلب عنه ، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن ، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان ، تبلغ إلى درجة الاطمئنان[٨٦] .

الوقفة الثالثة :

إن نتيجة هذا التأثر واضحة جلية في سلوك المؤمنين ونهج حياتهم ، فهم (على ربهم يتوكلون) ، يقول ابن كثير في ذلك : (أي لايرجون سواه ولايقصدون إلا إياه ، ولايلوذون إلا بجنابه ، ولايطلبون إلا منه ، ولايرغبون إلا إليه ، ويعلمون إنه ماشاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك ، لاشريك له ، ولامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب[٨٧] .

(٨٥) حديث أم الدرداء ، فتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٨٦ ، مطبعة الحلبي ١٣٨٣ه .

(٨٦) تفسير الظلال ، ٣/ ١٤٧٥ .

(٨٧) تفسير ابن كثير ، ٢/ ٢٧٤ .

٢ - اطمئنان القلوب :

إن اطمئنان القلوب مرحلة تأتي بعد إيمان عميق ، وسماع واع ، وتدبر للقرآن دقيق ، فإذا عاشت القلوب على هذا المنوال تصل إلى مرحلة من الاطمئنان إلى وعد الله في كتابه ، لاتحركه الزلازل ، وإلى درجة من الرقة والحذر والخوف من وعيد الله تجعلها تسجد وتخشع وتبكى لمجرد سماعه ، إنها القلوب المطمئنة التي بلغ فيها القرآن مبلغا من التأثير ، فقال سبحانه وتعالى واصفا إياها : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾(٨٨) إن النفس الإنسانية تحتاج إلى الاطمئنان في الأمور الهامة :

فهي تريد الاطمئنان عما بعد الحياة . ماذا بعد هذه الحياة؟ ويجيب القرآن ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(٨٩) ، ويوم القيامة يتميز الناس ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٩٠)

هكذا يجيب القرآن على هذا التساؤل الداخلي في النفس الإنسانية ، فيضع أمامها الحقائق في يسر وسهولة وتأثير بالغ ، فتطمئن إلى ماتعمله : إن كان خيرا ، فموت ، ثم بعث ، ثم حساب ، ثم جنة . وإن كان شرا . فموت ثم بعث ، ثم حساب ، ثم نار .

---

(٨٨) سورة الرعد ، آيه :٢٨ .

(٨٩) سورة المؤمنون ، آيه :١٥-١٦ .

(٩٠) سورة الحاقة ، آيه ١٩-٣٧ .

إنها حقائق خالية من التعقيد الفلسفي ، تجعل القلب يطمئن في هدوء إلى ربه ، والنفس تريد الاطمئنان على الرزق . وقد طمأننا الله في قرآنه على ذلك فقال : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٩١) ، وتريد النفس أن تطمئن على العمر ، وقضية البقاء ، والعدم ، والموت ، والابتلاءات .

ويحسم القرآن كل ذلك في كلماته السهلة الميسرة المؤثرة ، فيقول سبحانه : قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا (٩٢) ، ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(٩٣) وقوله سبحانه تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾(٩٤) فلماذا إذن لاتطمئن النفس الإنسانية بذكر الله؟ ولماذا لايترك القرآن فيها آثاره ، فيكسبها راحة وهدوءاً وسكينة؟ إن ذلك لايكون إلا للذين آمنوا به أولا .

٣ - سجود وخشوع :

ويزداد أثر القرآن في النفوس المؤمنة ، فيجعلها طيعة لأوامره ، منقادة لإشارته ، مستلهمة لمعانيه ، تخشع أجسادهم في سجود ، وتلهج ألسنتهم بذكر الله ، وتتقطر أقدامهم في قيام الليل والناس نيام ، وتفيض نفوسهم قبل أيديهم بالإنفاق في سبيل الله ، يقول سبحانه :﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(٩٥) يقول ابن كثير :

---

(٩١) سورة الذاريات ، آيه :٢٢-٢٣ .

(٩٢) سورة التوبة ، آيه : ٥١ .

(٩٣) سورة الحديد ، آيه : ٢٢-٢٣ .

(٩٤) سورة الاعراف ، آيه :٣٤ .

(٩٥) سورة السجدة ، آية :١٥-١٦ .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها ، قولا وفعلا ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها . ثم قال : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم (والاضطجاع علي الفرش الوطيئة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي خوفا من وبال عقابه ، وطمعا في جزيل ثوابه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة : رسول الله - ﷺ .

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه :

وفينا رسول الله يتلوا كتابه	ذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ماقال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	ذا استثقلت بالمشركين المضاجع(٩٦)

تلك مظاهر تأثرهم بالقرآن إذا سمعوا آياته : سجود سريع ، وتواضع ، واستكانة ، وقيام في الليل . يخافون العذاب ، ويطمعون في الثواب . وكل هذه خلال لذواتهم وتزكية لنفوسهم ، وأما لغيرهم ولمجتمعهم ، فقد أثر القرآن في تصرفهم ، فجعل أيديهم سخاء بالإنفاق مما رزقهم الله .

٤ - قشعريرة الجلود :

يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٩٧) .

---

(٩٦) الأثر والأبيات في تفسير ابن كثير ، ٣/ ٤٥٩ .

(٩٧) سورة الزمر ، آيه : ٢٣ .

كثير من العلماء الذين تناولوا قضية إعجاز القرآن بالبحث والتصنيف ، يستشهدون بهذه الآية في مصنفاتهم وأبحاثهم على ما للقرآن من تأثير على نفوس سامعيه . فقد سبق أن ذكرنا رأي (الخطابي) في الإعجاز التأثيري ، وكيف أنه أسسه على هذه الآيه ومثلاتها[٩٨] ، واستشهد بها (الباقلاني) على تعظيم شأن القرآن ، وعجز العرب عن الإتيان بمثله ، لاحتوائه على أمثال هذه الآيات المؤثرة[٩٩] .

وفي عصرنا الحديث يستشهد كل من (سيد قطب ، والدكتور الخطيب ، والشيخ محمد الغزالي) على أثرها البالغ في النفوس التي تسمعها ، وخاصة إن كانت مؤمنة بالقرآن ، وماذلك كله إلا لأن هذه الآية تحتوي في كلماتها المعدودة على أهم قواعد عملية التأثير ، ويتبين لنا ذلك إذا طبقناها على الآية ، لنرى بوضوح إلى أي مدى جمعت من أسباب التأثير ومظاهره :

تبدأ الآية بلفظ الجلالة ﴿ **الله** ﴾ وهو مصدر الحديث المسموع الذي سيحدث عملية التأثير ، ولايخفى على عاقل - مؤمناً كان أوكافراً - مالهذا اللفظ من عمل في قلب سامعه من تأثير سلبي أو إيجابي ، قبولا أو رفضا ، نفورا أو إقبالا . وصفات الحديث المسموع وخصائصه أنه : ﴿ **أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني** ﴾ أما المتشابه : يقول ابن كثير : (فلأن الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف ، أو هو تشابه الآيات في السور المختلفات ، أو أن سياقات القرآن قد تأتي في بعض المواضع متشابهة . وأما الثاني : فهو ترديد القول ليفهم الناس عن ربهم ، وقيل : المثاني المردد ، ردد ذكر موسى ، وصالح ، وهود ، وغيرهم من الأنبياء كثيرا في القرآن ، وقيل : المثاني ذكر الشيء وضده ، كالجنة والنار ،

---

(٩٨) ثلاث رسائل للباقلاني في إعجاز القرآن ، ص ٧١ .

(٩٩) إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ٣٠ ، تحقيق - السيد أحمد صقر - دار المعارف منصر ١٩٦٩م .

وذكر المؤمنين والكافرين[١٠٠] وفي قوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ نرى فيها نوع المتلقي وحاله ، ونرى كذلك مظهرين من مظاهر التأثير :

أما نوع المتلقي - هنا - فهو مؤمن خائف من الله ، استحق بتقواه لله ومراقبته له في السر والجهر أن يوصف بالخشية .

والمظهر الأول من مظاهر التأثير : هو (تقشعر منه الجلود) والقشعريرة : حالة في القلب تشبه احتراق السعفة ، كما سبق أن رأينا في حديث أم الدرداء .

والمظهر الثاني من مظاهر التأثير : هو (ثم تلين جلودهم وقلوبهم) .

فلين الجلود والقلوب ينبعث من حالة الرضا والاطمئنان ، والبشر والسرور التي يشعرها هؤلاء إذا غمرتهم هذه اللحظة التي يتذوقون فيها طعم الوحي الإلهي ، كأنه خطاب مباشر لهم - فقط - دون سواهم .

ولقد زاد (ابن كثير) هذه المعاني التي تحدثت عنها في هذه الآية عمقا وتفصيلا عندما قارن لنا بين نوعين من المتلقين لهذه الآية فقال : (فهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمونه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف . (ثم تلين جلودهم وقوبهم إلى ذكر الله) ، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه .

أحدها : إن سماع هؤلاء : هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات .

الثاني : إنهم إذا تليت عليهم آيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، ولهذا لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها ، بل مصغين إليها فاهمين

(١٠٠) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٥٢ ، عن قتادة ، والضحاك ، وسفيان بن عيينة ، وغيرهم . (بتصرف) .

بصيرين بمعانيها ، فلهذا ، إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة ، لاعن جهل ومتعابعة لغيرهم .

الثالث : إنهم يلزمون الأدب عند سماعها ، كما كان الصحابة - رضي الله - عنهم عند سماعهم كلام الله - تعالى - من تلاوة رسول الله - ﷺ - تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ، ولايتكلفون بماليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لايلحقهم أحد في ذلك ، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **تقشعر منه جلود الذين آمنوا . . .** ﴾ هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله - عزوجل - بأن تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا من أهل البدع ، وهذا من الشيطان[١٠١] ، ونستنبط من هذا التفسير لهذه الآية بعض المسائل الهامة :

إن دور المتلقي في عملية التأثير من الأهمية بمكان ، فكلما كانت استعداداته النفسية مهيأة لما يسمعه كان ذلك أدعى للتأثر بما يسمع ، وإن ابن كثير قد ميز لنا بين مستويين من المستمعين للقرآن من المؤمنين به :

الأول : يتأثر به عن بصيرة ، وهو الذي يدخل في دائرة بحثنا هذا .

والثاني : وهو مالايدخل في بحثنا هذا ، ممايدعيه غلاة التصوف من ذهاب العقل والغشيان ، وما إلى ذلك .

وأخيرا : إن مسألة التأثير غير قاصرة على القرآن ، ولاعلى المؤمنين به ،

---

(١٠١) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٥٢ ، عن قتادة والضحاك وسفيان بن عيينة ، وغيرهم . (بتصرف) .

وإنما قد تحدث من كل مايسمعه الإنسان ويعقله ، ولكن كل مؤثر وله نتائجه في حياة الأفراد والمجتمعات . والله أعلم .

٥ - فيض من الدمع :

قد يقول قائل : ولماذا لايبكي المؤمنون ولايسجدون ولاتقشعر جلودهم تأثرا بالقرآن؟ فهم مؤمنون به ، فتأثرهم لاغرابة فيه؟ وقد يكون لهذا السائل بعض الحق في سؤاله ، ولكننا نسأله : فلماذ تفيض عيون بعض ممن أوتوا العلم من أهل الكتاب عند سماع القرآن بالدمع؟ بل ويخرون للأذقان سجدا تأثرا به؟ يقول الله سبحانه وتعالى في حق هؤلاء : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[١٠٢] وقال ابن عباس عنهم : كانوا كرابين - يعني فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ الرسول - ﷺ - عليهم القرآن فاضت أعينهم من الدمع وآمنوا[١٠٣] .

ويقول الله - سبحانه - في حقهم أيضا : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[١٠٤] .

يقول سيد قطب مصورا لهذا المشهد المؤثر : (وهو مشهد موح ، يلمس

---

(١٠٢) سورة المائدة ، آيه : ٨٢-٨٣ .

(١٠٣) تفسير ابن كثير ، ٢/ ٨٦ ، طبعة الحلبي - مصر د . ت .

(١٠٤) سورة الإسراء ، آيه : ١٠٦-١٠٩ .

الوجدان . مشهد الذين أوتو العلم من قبله وهم يسمعون القرآن ، فيخشون ، ويخرون للأذقان سجدا) إنهم لايتمالكون أنفسهم ، فهم لايسجدون ، ولكن (يخرون للأذقان سجدا) ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله ، وصدق وعده : (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) ، ويغلبهم التأثير الغامر فلاتكفي الألفاظ في تصوير مايجيش في صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لاتصوره الألفاظ (ويخرون للأذقان يبكون) . .(ويزيدهم خشوعا) فوق مااستقبلوه به من خشوع .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه ، العارفة بطبيعته وقيمته ، بسبب ما أوتيت من العلم قبله . والعلم المقصود : هو ماأنزله الله من الكتاب قبل القرآن . فالعلم الحق : هو ماجاء من عند الله[١٠٥] .

ب - من السيرة النبوية :

١ - إسلام عمر بن الخطاب :

يحفظ التاريخ ويعي - باهتمام شديد - قصة إسلام عمر بن الخطاب ، وكيف أنه أسلم بعد سماعه القرآن ، على اختلاف في الروايات في اسم السورة التي سمعها عمر ، فرواية تذكر أنه سمع سورة طه ، ورواية تذكر أنه سمع سورة الحاقة[١٠٦] ، وقد ورد ذكر هذه القصة عند أغلب من كتب في إعجاز القرآن ، كأوضح دليل على إعجاز القرآن التأثيري فيمن يسمعه ، وبخاصة في عمر صاحب المواقف المحفوظة في قلوب المسلمين ، والمشهورة في كتبهم ، وعلى ألسنتهم ، بعد رسول الله - ﷺ - . وقد اتفقت عدة رويات في أن عمر قد

(١٠٥) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٥٤ .

(١٠٦) السيرة النبوية ، ١/ ١/ ٣٤٦-٣٤٨ .

نطق بكلمات تعبر عن مدى تأثره بالقرآن الذي سمعه :

أ - ففي رواية بن إسحاق عن عطاء ومجاهد التي تذكر تسلل عمر إلى الكعبة ودخوله تحت ثيابها يسمع القرآن من رسول الله - ﷺ - وهو يصلي ، فيحكى عن نفسه قائلات : (فلما سمعت القرآن وقوله رق له قلبي ، فبكيت ، ودخلني الإسلام)(١٠٧) . .

ب - وفي رواية أخرى لابن إسحاق : أن عمر لما علم بإسلام أخته ضربها فأدمى وجهها ، وطلب منها الصحيفة التي سمع منها طرفا قبل دخوله دارها ، فأعطته إياها ، وفيها (طه) ، فقرأها ، فلما قرآ منها صدرا ، قال : (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !)(١٠٨) .

ج - وفي حاشية سيرة ابن إسحاق أورد المحقق رواية عن شريح بن عبيد ، عن عمر ، يتحدث عن إسلامه ، فيقول : إنه وقف خلف رسول الله ﷺ وهو يصلي في المسجد فاستفتح (سورة الحاقة) فجعلت أتعجب من تأليف القرآن . فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ ﴿ **إنه لقول رسول كريم وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون** ﴾ فقلت : كاهن علم مافي نفسي ، فقرأ ﴿ **ولابقول كاهن قليلا ماتذكرون** ﴾ إلى آخر السورة ، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع)(الحاقة ٤٠ - ٤٢)(١٠٩) .

د - وفي مختصر السيرة لمحمد بن عبدالوهاب : أنه قرأ سورة طه (فتعظمت في صدري ، فقلت : ماأحسن هذا الكلام وأجمله !)(١١٠) .

ولايعنينا الآن البحث عن سند الروايات وبيان أصحها ، أو مناقشة كل

---

(١٠٧) المصدر السابق ، ١/ ١/ ٣٤٧ .

(١٠٨) المصدر السابق ، ١/ ١/ ٣٤٥ .

(١٠٩) المصدر السابق ، حاشية ١/ ١/ ٣٤٨ .

(١١٠) مختصر السيرة النبوية ، عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ١/ ١١١ - مطبعة البحوث العلمية .

ماورد في متنها من أحداث ، إنما يهمنا أن الروايات كلها تقريبا قد أجتمعت على أن إسلامه يرجع بالدرجة الأولى إلى سماع شيء من القرآن أثر في قلبه ، وأن مظاهر هذا التأثير قد تجلت في أقواله : (سمعت هذا القرآن فرق له قلبي ، وبكيت ، فدخلني الإسلام) ، (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه) ، (فوقع الإسلام في قلبي كل موقع) ، (تعظمت في صدري ، فقلت ماأحسن هذا الكلام وأكرمه !) ، إن كلمات عمر التي تعتبر أهم بيان لما أحدثه القرآن من أثر يمكن ترتيبها على تصور آخر :

(سمع عمر آيات القرآن ، فرق لها قلبه ، وتعاظمت في صدره ، فوقع الإسلام منه كل موقع ، فبكى ، وقال : ماأحسن هذا الكلام وأكرمه !) : هذا الترتيب يكشف في تصوري - والله أعلم - مراحل التأثير القرآني التي مر بها عمر ، فقد سمع ، وقد تخلى في لحظة سماعه - أو شاء الله له أن يتخلى - عن موانع التأثير : - كالاستكبار ، واتباع الآباء والأجداد ، وكل جواذب الأرض ، وماتتبدى فيها من مظاهر اجتماعية ، أو مالية ، أو أدبية . . . .الخ .

ولحظة هذا التخلي هي التي جعلت القرآن يتفاعل مع فطرته السليمة الصحيحة التي تغشت أو تلوثت بعض الشيء بلوثات الجاهلية ، فلما تفاعل معها القرآن الإلهي المصدر مع الفطرة الإلهية الخلقة تبدي من ذلك رقة في القلب ، ضد ماكان فيه من قسوة وغلظة وجفوة ، جعلته يلطم أخته فيدمي وجهها ، وترتعد منه فرائس ضعاف المسلمين عندما يسمعون صوته ، ويستلذ عمر بهذا الإحساس الجديد الجميل الذي يتسرب في قلبه ، ويتسلل في حنايا نفسه ، ويهز إحساسه ووجدانه ، فيتعاظم ذلك في صدره ، إنه شيء عظيم ، يملأ هذا الصدر العظيم ، شيء لايعرفه عمر ، ولايعهده ، إنه شيء أكبر من كبرياء عمر ، وأكبر من غطرسته واعتزازه بنفسه ، إنه أكبر مما سمعه طوال سني

عـمره ، فـلاشـعـر ، ولاسـحـر ، ولاكـهـانة ، ولأسـاطيـر الأولين ، ولاحكمـة المجربين ، تتعاظم في صدر عمر كما تعاظمت آيات القرآن - ويدخله الإسلام - وهو تعبـير دقيق - إنه استـسـلام العظماء ، وانقـيـاد الأعزة لخـالق الـعظمـاء وصاحب العزة .

وبعـد كل ذلك تأتي عـبـارة عمـر اللسـانيـة (ماأحسن هذا الكـلام وأكرمـه !) التي يسمعها السامعون قبل أن يعرفوا مادار في نفس عمر ، وماعاناه من تأثير قبل النطق بهـذه الكلمات الـتي لاتمثل في قـول القائلين في وصف القرآن كـثيـرا ، إلا أنها لـم تأت إلا بعد أن تكبد صاحبها من المعاناة النفسية الكثير والكثير .

٢ - إسلام الطفيل بن عمر والدوسي

الطفيل بن عـمرو - كمـا تصفه الرواية - : يختلف عمن سواه ، إنه شـاعر ، شـريف ، لبـيب . إنهـا صـفـات تجـمـع بين الذكـاء العـقلي الـحـاد ، والإحـسـاس الوجداني المـرهف ، إضافة إلى شرف المكانة السـامقة في قبيلته . ومن هنا كان اهتـمـام قـريش بهـذه الشـخـصيـة المـؤثرة فـيـمن حـولهـا ، فلتبـدأ قـريش بغـزوها الفكري لهـذه الشخصية الفذة الوافـدة عليهـا ، قبل أن يسـمع القرآن فيفكر فـيه ، ويتـأثر به ، أو يؤثر فيـه ، فيسلم ، فتعظم بذلك طامة قـريش ومصيبتهـا . وهاهـم يتـحـدثون مع الطـفـيل بكل مـامن شـأنه أن يصـده عن الإسـلام ، ويمنـع عنه تأثير القـرآن ، فيـصـفـون له مـحـمـدا : إنه (قـد أعـضل بـنا ، وفـرق جـمـاعـتنا ، وشـتت أمـرنا) ، ويصـفون له الـقرآن : إنه (كـالسـحـر ، يفـرق بين الرجل وبين أبيـه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته) ، ووصـيتهم له ولغيره (وإنا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا ، فلاتكلمنه ، ولاتسمعن منه شيئا) .

هكذا - بكل أسلوب من أسـاليب التوكيد - قدمـت قريش كل مالديها من

غزو فكري مضاد لتأثير القرآن على ضيفها ، وألقت الرعب والخوف في قلبه ، وصورت له الأمر على غير حقيقته ، وبغير صورته . فإياك ياطفيل ، ثم إياك أن تسمع شيئا من القرآن ، لكن المحاربين للقرآن في كل العصور والأزمات ينسون حقيقة وبديهة هامة ، هي : أنهم بحربهم الضروس على القرآن إنما يفتحون له بذلك العقول والقلوب الحية النابضة ، لتتساءل عما فيه من سر يشعل الحرب حوله بين أعدائه وبين متبعيه ، أنهم سيرون أنه كتاب يختلف عن سائر مايعهده البشر من كتب ، إن البشر يختلفون حياله هذا الاختلاف ويتعادون بسببه هذا العداء ، إنها مسألة لابد أن تثير ذهن من له مسكة عن عقل أو فكر أو وجدان .

وظلت قريش بوسائلها المتنوعة مع الطفيل ، ترهبه مرة ، وتغريه أخرى ، حتى تأثر الطفيل بما قالته ، فسلك مسلكا عجيبا للمبالغة في البعد عن تأثير القرآن فأخذ لنفسه الحيطة والحذر من أي لقاء لمحمد - ﷺ - أو سماعه ، ولكن لايكفي هذا ، إذ ربما تسللت آيات القرآن إلى أذنيه - عبر الأثير - من فم طاهر يتلوها ، فلابد من قطع هذه الطريق أيضا ، ولابد من إقامة موانع - ولو مادية - تمنع وصول الإشعاع القرآني إلى عقله أو قلبه ، ماذا يصنع الطفيل حيال هذا لغازي الذي ينتقل عبر الأثير فيغزو العقل والقلب معا؟ فلنسمعه يقول :

(فوالله مازالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذني - حين غدوت إلى المسجد - كرسفا ، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لاأريد أن أسمعه .

لقد آتت حرب قريش للقرآن - أو بالأحرى لتأثير القرآن على النفوس - أكلها ، فإن الإنسان بما أودعه الله فيه من أجهزة متنوعة ومختلفة ومن نفس - عجز الباحثون عن إدراك كل جوانبها ومناحبها - لابد له أن يتأثر بما يسمع ، ولكن ماذا يسمع؟ وإلى أي مدى يلتقي هذا الذي يسمعه مع فطرة الإنسان وجبلّته ، وطوايا نفسه؟ من هنا تكون غلبة المؤثر على من يتأثر به .

فالطفيل تأثر بكلام قريش ضد القرآن قبل سماعه ، فعزم على عدم السماع ، والتمس لذلك حيلة لائليق بالعقلاء الكبار من أمثاله ، وقد نسي الطفيل أن الموانع المادية أضعف آلاف المرات من العوامل النفسية أمام التأثيرات الخارجية ، وبخاصة إذا كانت تأثيرات آيات الرحمن القرآنية ! ! ليضع الطفيل كرسفا ، أو رصاصا ، فإن ذلك لايلبث أن ينهار بأيدي صانعيه ، ذلك أنه يخالف ماتعرفه الفطر السليمة ، وماتعتاده العقول الصحيحة .

وسنرى بيان ذلك وصدقه على لسان الطفيل نفسه إذ يقول : (فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله - ﷺ - قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ! ! فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر ، مايخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول ! فإن كان الذي يأتي حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، إذاً لتفعل قريش وأمثالها ماشاءت من أساليب مختلفة لحرب التأثير القرآني على النفوس ، وكتمان إعجازه ، فلابد من نفاذ تأثيره . ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(١١١) .

لقد أغفلت قريش وأسقطت من حسبانها في حربها إعجاز القرآن التأثيري قدرة ، منزّل هذا الكتاب ، تلك القدرة التي لازال كل المحاربين للقرآن والمحاولين النيل منه ، والواقفين أمام تأثيره الصحيح في نفوس المؤمنين به ، لازالوا متناسين لها ، لايقيمون لها حسابا ، فإذا بها تصنع معجزات القرآن فيمن يسمعه .

وهكذا ترك الطفيل منطق الصغار والضعاف ، وأخذ بمنطق العقلاء

(١١١) سورة يوسف ، آيه : ٢١ .

الأقوياء ، أو إن شئت فقل : خلع الطفيل ربقة التبعية الفكرية من عنقه ، ورفع غشاوة الغزو عن عقله ، وقال قوله المنصف لنفسه ولغيره : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيت شاعر ، مايخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته .

أنصفت ياطفيل ، فلتسلم في تؤدة ، وعلى روية ، حتى إذا حكمت كان حكمك صائبا لنفسك ولغيرك . وقصد الطفيل بيت رسول الله - ﷺ - فعرض عليه الرسول - ﷺ - الإسلام ، وتلى عليه القرآن ، ونطق الطفيل اللبيب الشاعر الشريف بأصدق وصف لما تأثر به من القرآن ، فقال : (فلا والله ماسمعت قولا - قط - أحسن منه ، ولاأمراً أعدل منه)[١١٢] ، وأسلم الطفيل ، وإسلامه كان الغاية والهدف من تأثير القرآن في نفسه . ولتهزم قريش ، ولتخفق كل أساليب التأثير التي شنتها على الطفيل أمام أثر القرآن على النفوس ! .

٣ - أثر القرآن في أهل المدينة :

صدق القاتلون : (فتحت الأمصار بالسيوف ، وفتحت المدينة بالقرآن)[١١٣] ، فقد كان القرآن الكريم هو السلاح الحاسم في تحويل أهل المدينة - خزرجهم وأوسهم - من الشرك والوثنية إلى الإسلام والقرآن ، ففي بيعة العقبة الأولى دار هذا الحوار بين الرسول - ﷺ - ونفر من خزرج المدنية : قال - ﷺ - : من أنتم؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : (من موالي اليهود؟ قالوا : نعم . قال : (أفلاتجلسون أكلمكم؟) قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله - عزوجل - ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن)[١١٤] فآمنوا وصدقوا .

---

(١١٢) السيرة النبوية ، ١/ ١/ ٤٢٨ (بتصرف) .
(١١٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢١٧ .
(١١٤) السيرة النبوية ، ١/ ١/ ٤٣٤ .

فالقرآن في الخطوة الأولى التي يخطوها الإسلام نحو المدينة معقل اليهود وغيرهم . والقرآن في الخطوة الثانية : (فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله ﷺ : مصعب بن عمير ، و وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان مصعب يسمى المقريء بالمدينة)(١١٥) .

٣ - إسلام عباد بن بشر :

وفي أنصار رسول الله - ﷺ - يتجسد الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم ، متمثلا في شخصية عباد بن بشر المدني الأنصاري ، الذي انتدبه الرسول - ﷺ - هو وعمار بن ياسر المهاجري للحراسة في ليلة من ليالي غزوة ذات الرقاع ، (فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب للقيام بالحراسة من خلاله - ، قال الأنصاري للمهاجري : أي الليل تحب أن أكفيكَه : أوله أم أخره؟ قال عمار : بل اكفني أوله .

فأضطجع عمار فنام ، وقام عباد يصلي ، وأتى الرجل - أي من الأعداء - فلما رآى عبَّاداً قائما عرف أنه ربيئة ، (أي طليعة) القوم . فرمى بسهم فوضعه فيه ، فنزعه ووضعه ، فثبت قائما ، ثم عاد له بالثاني ، ثم عاد له بالثالث ، فوضعه فيه ، فنزعه فوضعه ، ثم ركع وسجد ، ثم أهب صاحبه ، فقال اجلس فقد أُثبتُّ (جُرحت) ، فوثب عمار ، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به فهرب(١١٦) .

وهنا قد نتساءل : لماذا تحمل عباد كل هذه الجراحات ، هل تحملها شجاعة؟ أم تحملها إيثارا لراحة أخيه المهاجري النائم؟ أم أن هناك سببا آخر شغل هذا الأنصاري المجاهد عن نفسه وعن صاحبه وعن جراحاته ، سهام

---

(١١٥) السيرة النبوية ، ١/ ١/ ٤٣٤ .

(١١٦) المصدر السابق ، ٣/ ٢١٩ .

ثلاثة تصوب ناحيته ، ثم تصيبه ، ثم تنفذ خلال جسده ، فيسيل دمه ، فيثبت أمام كل ذلك متأثرا بشيء أقوى من هذه الأسهم ! هذا التساؤل هو ماثار في ذهن عمار قائلا لصاحبه بعد مارأى مابه من الدماء : سبحان الله ! أفلا أهبتني أول مارماك؟ فيقول عباد بن بشر المدني الأنصاري : كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها ، حتى أنفدها ، فلما تابع علي الرمى ركعت فآذنتك ، وأيم الله ، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله - ﷺ - بحفظه ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها ، أو أنفدها[١١٧] ، أي سور القرآن تلك التي سلبت من هذا الأنصارى كل مشاعر الألم والخوف والحرص على الحياة؟ لم تخبرنا الرواية باسمها ، ولعل في ذلك مايجعلنا نؤكد تأثير القرآن بجمتله على من يؤمن به .

٢ - مظاهر أثر القرآن على الكافرين :

أ - (من القرآن الكريم)

١ - السطو على قاريء القرآن :

لما سمع الكافرون والمشركون القرآن شعروا في أنفسهم بتغير وعجز أمام مايسمعون ، فاهتاجوا ، وكادوا يسطون بمن يتلوه عليهم من المؤمنين ، وسجل القرآن ذلك فقال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[١١٨] .

هذا لون عنيف من ألوان التأثر بالقرآن ، يبدو مظهره في : تغير في وجوه أهل الكفر ، حتي يكاد الرائي لها أن ينكر من نفسه معرفته لها من ذي قبل ،

---

(١١٧) السيرة النبوية ، ١/ ١/ ٤٢٨ .

(١١٨) سورة الحج ، آيه : ٧٢ .

لشدة تغيرها غيظا وحنقا ، ولايقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعدى ذلك إلى حركة انفعالية غاضبة ، تتمثل في محاولة السطو على هذا القاريء للقرآن الذي هدم كل مالديهم من موانع نفسية ، وغدا منتصرا على عنادهم النفسي ، يشعرون بهزيمتهم النفسية أمامه ، ولايستطيعون أمام ذلك الغازي المنتصر الرد بالحجة والبرهان ، وإنما يحاولون رده بالسطو والضرب .

ومن الملاحظ هنا : أن التأثر لم يأت من شخص القاريء مطلقا ، وإنما أتى التأثر من النص القرآني - فقط - دون سواه ، هو وحده - فقط - الذي جعلهم يفقدون السيطرة على أعضائهم الجسدية ، وتخونهم أحلامهم - وهم أصحاب الحلم - في ضبط انفعلاتهم أمام تلاوة آيات قرآنية مكونة من جنس مايعرفون من الكلام الذي لايجدون له مثل هذا التأثير البتة .

٢ - اشمئزاز القلوب :

وتكشف الايات القرآنية سببا مخبوءا من أسباب تأثر الكافرين والمشركين بالقرآن ، قد نرى نحن مظاهره ، ولانصل إلى سره ، ولانعرفه ، فإذا بالقرآن يكشف ذلك على رؤوس الأشهاد ، فيتحدث عن القلوب حديث الخبير البصير ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾(١١٩) . كيف تشمئز القلوب؟ وماهي حركتها ومظهرها وقت الاشمئزاز؟ وهل تستطع أجهزة العلم الحديث أن تصور لنا ذلك؟ وهل تستطيع أقلام عباقرة البشر ومفكريه أن ترسم لنا صورة لفظية لاشمئزاز القلوب كما تبدو - هنا - في هذا الملمح الدقيق الجميل؟

---

(١١٩) سورة الزمر ، آيه :٤٥ .

حركة اشمئزاز القلوب حركةم داخلية لانراها ، بل ولانستطيع أن نتخيلها ، ولو أن عالما من علماء النفس مزج علمه النفسي بعلوم التشريح والأشعة وعلوم الطب الحديثة فرصد لنا حركة القلب وقت سماع صاحبه لآيات القرآن لكشف لنا عن عجائب قدرة الخالق ، وعن مدى تأثير قرآنه في نفوس البشر ، حتى الكافرين به منهم . وأما الاستبشار ، والبشر والسرور ، فهذا شيء نرى أثره في نفوسنا ، ومظهره في قسمات الوجوه ، وإن كنا نجهل كنهه أيضا ، والآية تعرض مظهرين متناقضين من مظاهر التأثر بالقرآن عند المشركين .

الأول : نفور داخلي ، وضيق قلبي ، عبر عنه القرآن بالاشمئزاز ، وذلك لمطالبته المشركين بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

الثاني : بِشْرٌ وانبساط في النفس وانفراج في الأسارير والوجه إذا ذكر لهم الأنداد والأوثانَ والأصنام من دون الله سبحانه . ودلالة ذلك الواضحة وثمرته القريبة : هو الكشف عما تخفيه نفوسهم من تناقض وتنافر حيال مايسمعون . والله أعلم .

٣ - الإزلاق بالعيون :

جارحة العين خلقها الله للرؤية ، وقد يصدر عنها بعض الحركات ، أو الإشارات التي تنبيء عن حالة صاحبها النفسية ، ويعرف ذلك الباحثون في علم الإشارات وعلاقته بالجسم أو بالصوت ، أو بما إلى ذلك ، والقرآن الكريم يسجل حركة حادة لجارحة العين ، تصدر من أهل الكفر عند سماعهم للقرآن ، يقول سبحانه : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾(١٢٠) .

---

(١٢٠) سورة القلم ، آيه : ٥١ .

إن الإزلاق حركة في قدم الإنسان ، تجعلها تزلق ، وتفقد توازنها وثباتها على الأرض ، أو الإزلاق هو : النفاذ ، كما قال أبن عباس رضي الله عنه : (ليزلقونك : أي لينفذونك)(١٢١) ، ومن هذا المعنى رأى ابن كثير أن معنى يزلقونك : أي يحسدونك لبغضهم إياك ، وأسس تفسير الآية كلها على أثر العين في المحسود ، فأورد أكثر من خمسة عشر حديثا عن الحسد وأثره في الأبدان والنفوس(١٢٢) . وللآية - والله أعلم - بالإضافة إلى ما قاله دلالة أخرى ، ووجه آخر ، هو : هذا الإعجاز التأثيري للقرآن على نفوس الكفار ، وقد تبدت مظاهره في عبارة (يزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) .

يقول سيد قطب : (فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول - ﷺ - فتجعلها تزل وتزلق ، وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق ، وشر ، وحسد ، ونقمة ، وضغن ، وحمى ، وسُم ، مصحوبة هذه النظرات المسمومة بالسب القبيح . والشتم البذيء والافتراء الذميم ، (ويقولون إنه لمجنون)(١٢٣) .

٤ - الضجر والتأفف :

يستشعر الكفار ثقلَ هذا القرآن على نفوسهم ، ويتضجرون بما يجدون فيه من عجائب الخطاب وروائع البيان ، وكشف لأستار النفوس ، فلايسعهم إلا أن يعرضوا على محمد ﷺ أن يأتى بقرآن غيره ، أو يبدله ، ويسجل القرآن عرضهم هذا في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ

(١٢١) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٤٠٩ - دار الحديث - مصر ١٤١٠هـ .
(١٢٢) المصدر السابق ، ٤/ ٤٠٩-٤١٢ .
(١٢٣) الظلال ، ٦/ ٣٦٧١ .

عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١٢٤) .

هذا منطق العجزة الذين لايستطيعون حيلة ، ولايهتدون سبيلا أمام هذا الخطاب المعجز الذي يبهر منهم النفوس ، ويخرس منهم الألسنة ، ويتركهم مشدوهين في حيرة مطبقة ، لايطيقون - معها - إلا هذا الطلب الساذج أن يغير هذا القرآن المعجز أو يبدله .

٥ - التواصي بعدم السماع :

ويتواصى أهل الكفر بعدم السماع للقرآن ، حتى لايقعوا تحت تأثيره ، فيقودهم ، إلى الإسلام والإيمان ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾(١٢٥) .

ويصير الأمر أوضح من ذلك عندما يعلن الكفار هذه الوصية بصورة حاسمة قاطعة ، تستدعي التناهي فيما بينهم عن سماع القرآن ، فيقول الله - سبحانه وتعالى - حاكيا عن هذا التناهي : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ ﴾(١٢٦) إلى هذه الدرجة كان لسماع القرآن أثره في نفوس أعدائه ، فهم يتشاغلون عنه ، ويتلهون بغيرة ، ويتعاهدون فيما بينهم على عدم الاقتراب من تاليه ، حتى لايصل آذانهم ، حتى إذا وقع بعضهم في ذلك (قاصدا - أو ناسيا) لاموه ، وعنفوه ، وعابوه ، وقالوا له : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾؟؟ .

---

(١٢٤) سورة يونس آيه :١٥-١٦ .
(١٢٥) سورة الأنبياء آيه :١-٢-٣ .
(١٢٦) سورة فصلت آيه :٢٦ .

لقد نعتوا القرآن بالسحر ، ونعتوا أنفسهم بالإبصار ، وحقيقة الأمر على غير ذلك ، فما القرآن إلا وحي مؤثر من خالقهم ، ومادعاؤهم الإبصار إلا محاولة تبرير ضعيفة ، وهروب منهزمة ، يسترون تحتها مافي نفوسهم من استكبار وعتو ، وتواص على عدم الانصياع للحق ، وخروج من الباطل ، بل وحرص على استخدام كل الاساليب الإعلامية التي تمنع وصول أي أثر لهذا البث القرآني المؤثر في النفوس ، ﴿ **لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ** ﴾ : غالبوا أثره ، كما يقول ابن كثير : (بالمكاء والصفير ، والتخليط في المنطق على رسول الله - ﷺ - إذا قرأ القرآن)(١٢٧) .

وإذا تتبعنا أثر القرآن على الكافرين وماظهر من أعمال نتيجة هذا التأثر لرأينا كثيرا من المواقف التي لامجال لذكرها هنا ، بيد أننا نشير إلى بعض الآيات القرآنية الدالة عليها ، فارجع - مثلا - إلى قوله تعالى : ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾(١٢٨) ، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾(١٢٩) وقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾(١٣٠) ،

وقوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾(١٣١) ، وغير ذلك من الآيات .

---

(١٢٧) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٤٠٩ - دار الحديث - مصر ١٤١٠هـ .

(١٢٨) سورة النجم ، آيه :٦٢ .

(١٢٩) سورة الأنفال ، آيه :٣١ .

(١٣٠) الجاثية ، آيه :٧-٨-٩ .

(١٣١) سورة المدثر ، آيه :٤٩-٥٠-٥١ .

ب - (من السيرة النبوية)

سنعرض في السطور التالية عددا من المواقف التي تبين أثر القرآن الكريم على الكافرين من أهل مكة ، ثم نتبعها بالتعقيب أو التحليل ، لنستنبط من خلالها التأثير القرآني عليهم :

أول هذه المواقف : ماعنون له ابن هشام بعنوان : (استكبار قريش عن أن يؤمنوا بالرسول - ﷺ - ، وبما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدّث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(١٣٢) ، أي اجعلوه لغوا وباطلا ، واتخذوه هزوا ، لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه - يوما - غلبكم(١٣٣) .

ثم يستكمل ابن هشام هذا النص بعد ذكره قصة عن أبي جهل فيقول : (فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا إذا جهر رسول الله - ﷺ - بالقرآن - وهو يصلي - يتفرقون عنه ، ويأبون أن يسمعوا له .

فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله - ﷺ - بعض مايتلو من القرآن وهو يصلي ، استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب - خشية أذاهم - فلم يستمع منه ، وإن خفض رسول الله - ﷺ - صوته ، فظن الذي يستمع أنهم لايستمعون شيئا من قراءته ، وسمع هو شيئا - دونهم - أصاخ له يستمع منه) .

---

(١٣٢) سورة فصلت ، آية :٢٦ .

(١٣٣) السيرة النبوية ، ١/ ١/ ٣١٣ .

ثم روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال : (إنما أنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾[١٣٤] من أجل أولئك النفر . يقول : لاتجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ، ولاتخافت بها فلايسمعها من يحب سماعها ممن يسترق السمع إلى ذلك دونهم ، لعله يرعوي إلى بعض مايسمع ، فينتفع به[١٣٥] .

الموقف الثاني :

قال ابن إسحاق بسنده : كان أول من جهر القرآن بعد رسول الله - ﷺ - بمكة : عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : اجتمع أصحاب رسول الله - ﷺ - فقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يجهرلها به قط ، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبدالله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني ، فإن الله سيمنعني . قال : فغدا ابن مسعود ، حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ، ثم قرأ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ رافعا بها صوته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾[١٣٦] قال ثم استقبلها يقرؤها . قال : فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا : إنه ليتلوا بعض ماجاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف عنهم إلى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ماكان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ، قال : حسبك ، قد أسمعتهم مايكرهون[١٣٧] .

---

(١٣٤) سورة الإسراء ، آيه : ١١٠ .
(١٣٥) المصدر السابق ، ١/ ١/ ٣١٤ .
(١٣٦) الرحمن ، آيه : ١-٢ .
(١٣٧) السيرة ، ١/ ١/ ٣١٥ ، ٣١٦ .

الموقف الثالث :

قال ابن إسحاق بسنده : إن أباسفيان بن حرب ، وأبا جهل ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لايعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية فعلوا مافعلوا بالليلة الأولى ، وكذلك في الليلة الثالثة ، جمعهم الطريق أيضا ، فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال أخبرني ياأبا حنظلة ، عن رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال : ياأباثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ، ولامايراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل فقال : ياأباالحكم ، مارأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال : ماذا سمعت ! ، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منّا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ! والله لانؤمن به أبدا ، ولانصدقه(١٣٨) .

التعقيب :

إن هذه المواقف الثلاثة يتبدى من خلالها عدد من المسائل ذات الصلة

(١٣٨) السيرة ، ١/ ١/ ٣١٥ ، ٣١٦ .

الهامة بالإعجاز التأثيري للقرآن ، متمثلا في نصوص السيرة ، منها :

أولا : كان سماع القرآن بالنسبة للمجتمع المكي يعتبر مفاجأة مذهلة ، لم تعتدها آذانهم ولاعقولهم ، ولم يعهدوا في في ثقافتهم مثل هذا الخطاب الذي فاق في بلاغته وتأثيره كل ماسمعته آذانهم من قبل - شعرا كان أونثرا - ، ولذلك تعطي نصوص السيرة النبوية هنا أهمية خاصة لمسألة السماع وأثرها على الجانبين : جانب الكافرين ، وجانب المسلمين على السواء :

فأما جانب الكافرين فهو إدراك لأثر السماع ، وخوف من نتائجه ، وتواص من كل طبقاتهم ومستوياتهم (العامة والخاصة) بعدم سماع القرآن ، أو السماح بسماعه .

وأما جانب المؤمنين : فكان الحرص على إسماع الكافرين القرآن يعتبر عملا دعويا ضخما ، له تكالفيه وتضحياته ، حتى يحتاج الأمر إلى رجل ذي عشيرة قوية تمنعه من بطش الباطشين ، نتيجة لإسماعهم مايكرهون كما نرى في ابن مسعود .

ثانيا : وقد تتساءل : وماهى آثار مسألة سماع القرآن على الكافرين والمؤمنين من خلال هذه المواقف؟ والجواب عن هذا التساؤل نلمح تكراره في هذه المواقف ، بل وفي غيرها من المواقف الجماعية والفردية التي تمتلئ بها السيرة النبوية ، ولذلك فإننا سنجملها - هنا - بما يغنى عن تكرارها :

١ - **الاستهزاء والسخرية من الكافرين بعد سماعهم القرآن** : فهم لايأخذون مايسمعون مأخذ الجد - وهذا في الظاهر فقط ، فإذا خلا بعضهم إلى بعض . أو خلا أحدهم إلى نفسه ، انقلب الأمر من السخرية والاستهزاء وعدم المبالاه إلى التدبير والتخطيط ، والحرص الدائم على إبعاد الناس عن سماع القرآن ، حتى لايقعوا تحت تأثيره المعجز .

٢ - **الإيذاء الشديد للمؤمنين** : الذي لايقف عند حد السب والشتم والسخرية والاستهزاء ، وإنما يصل إلى البطش والضرب ، وكان الأولى بالعقلاء أن تجابه الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، والإعجاز بالإبطال .

وهذه المظاهر التأثيرية للقرآن على الكافرين نلمحها في شتى الأزمان والأعصار ، فهي لاتقتصر على معاصري الرسول - ﷺ - وأصحابه وإنما نراها دائما عند مايترك القرآن آثاره على فئة مؤمنة ، فتستقيم بها على نهج ، وتعجز قوى الكفر والشرك عن دفع هذه الآثار القرآنية المعجزة بالعقل والمنطق والحجة والبيان ، فتلجأ إلى الإيذاء البدني الذي يصل إلى حد المحو والإبادة .

٣ - **قد يزعم بعض الطاعنين في أثر القرآن على النفوس أنه لم يؤثر إلا على فئة من عامة الناس وضعفائهم** : ولعل النص الثالث الذي يكشف خبيئة ثلاثة من كبار قريش (أبوسفيان ، وأبوجهل ، والأخنس بن شريق) يرد هذا الطعن ويهدمه ، فلم يقتصر الأمر على عوام مكة وضعافها ، وإنما شمل أشرافها وساداتها ، فأثر القرآن لايختص بنفس ، ولايتعلق بعوام الناس أو بأشرافهم ، إنما هو يمس القلوب المتفتحة له ، مهما كان حاملها ، شريفا كان أم وضيعا ، ولذلك كان رسول الله - ﷺ - وأصحابه يجابهون القوم كل القوم بتأثير القرآن ، دون تمييز بين مستوياتهم الاجتماعية ، أو الأدبية ، أو المادية .

٤ - **إن قوله أبي سفيان للأخنس بن شريق عن تأثير القرآن بعد سماعهما له** : (ياأبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولامايراد بها[١٣٩] .

ورد الأخنس عليه : (وأنا والذي حلفت به كذلك) قولة تدل على وقوع تأثير

(١٣٩) المصدر السابق ، ١/ ١/ ٣١٥، ٣١٦ .

عـقلي من نوع مـافي تفكيـر الرجلين ، وعلى إدارك لـبـعض المـعـاني التي سـمـعـاها من القـرآن الكريم ، بيـد أن هذا التأثر كـان ضـعـيـفـا ، لم يثبت أمـام عنجهية أبي جهل واستكباره ، وحرصه على إماتة أي تأثير للقرآن في عقله ، فجعل للحديث معهما مجرى آخر ، إذ لم يناقشهما فيما سمعا ، وإنما تحدث عن منافسات اجتماعية بائدة ، لاتتصل بما سمعه الرجلان من قريب أو بعيد .

ثالثـا : يتكشف لنا من هذه المـواقف الثـلاثة بعض مـوانـع التـأثر بالقـرآن وظهور إعجازه في النفوس ، وهي ثلاثة موانع :

١ - **الحسد** : وهي آفة سيئة تقف حاجزا منيعا وسدا حصينا بين صاحبها وبين مـؤثرات سـمـاع الحق من غـيـره ، لأن نفس الحسـود لاتحرص على الحق لمـجـرد أنه الحق المـجرد عن الهـوى والمـيل ، وإنمـا تنظر قبل ذلك إلى مـصدره ، فتصب جارم غضبها على داعي الحق ، وتنفث سموم حسدها حوله ، حتى تنال منه ، فتمنع نفسها ، وقد تمنع غيرها من التأثر بهذا الحق . ولذلك قـال ابن هشـام يصف هـذا الصنف من الحـاسـدين : (فلمـا جـاءهم رسول الله - ﷺ - بمـا عرفوا من الحق ، وعـرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبـوته فيـمـا جاءهم به من علم الغيـوب - حين سألوه عـمـا سألوه عنه - حال الحسـد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصـديقه ، فعتـوا على الله ، وتركـوا أمره عـيـانـا ، ولجـوا فيـمـا هم عليه من الكفر . . .)[١٤٠] فهم قد عـرفوا الحق ، وانصـرفوا عنه بسبب حسـدهم لحامله إليهم ونتيجة ذلك وأثره : التكذيب ، والعتو على أمر الله ، واللجاجة في الكفر .

٢ - **الاستكبار** : وهو قرين الحسد ونتيجته ، وهاهو يتجسد في منطق أبي جهل

---

(١٤٠) السيرة النبوية ١/ ١/ ٣١٣ .

عندما سئل عما سمع من محمد - ﷺ - من القرآن ، فقال : (ماذا سمعت؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ! والله لانؤمن به أبدا ، ولانصدقه) .

لقد أعطى أبوجهل ظهره للسائل ، فلم يجبه عن سؤاله ، ولم يتحدث عما سمع ، وحكمه فيما سمع ، ، فإنه - ههنا - كان من الاستكبار إلى درجة مكنته من صرف المواجهة العقلية والنفسية بين ماهم عليه من معارف صغيرة حقيرة ، وبين ماسمعوه في القرآن من حقائق عن الألوهية والإنسان والكون والحياة . . .إلخ ، إلى مواجهة من نوع آخر ، هي مقابلة مادية الأصول والأسس ، ومظهرية النتائج .

٣ - القادة ، والسادة والزعماء ، والرؤساء ، ومن لهم الكلمة المؤثرة في المجتمع :

من أهم موانع وصول التأثير القرآني وظهور معجزته في تغيير النفوس ، وتلك سبيل قديمة سلكها أبوجهل ، وأبوسفيان ، والأخنس بن شريق ، ومن كان على شاكلتهم ، منذ ذاك الحين ، وحتي يومنا هذا ، فانظرهم وهم يتسللون لسماع القرآن - دون علم أحدهم بما يصنع صاحبه - فتجمعهم السبل - على تفرقها ، لأنهم على هدف واحد - فيكون حالهم ومنطقهم كما تقول الرواية : (فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا) ، وهكذا يتكرر التلاوم ، ويتكرر القول ، ويتكرر التواصي مرات ثلاث ، لماذا؟ تأكيدا على البعد بأنفسهم عن تأثير القرآن ، ومنع غيرهم أن يقع تحت هذا التأثير بتأثرهم وإعلانهم لما وجدوه في نفوسهم ! !

ترى لو كان هؤلاء الثلاثة صدقوا مع أنفسهم وأعلنوا عما وجدوه بصدق عن تأثرهم بالقرآن . كم كان من عوام الناس يتأثر بتأثرهم؟ بل كم كان يؤمن بذلك التأثير؟ لكنه حرص هؤلاء القادة والسادة على مواقع التأثير ، فلايكون منها إلا مايتفق ومايريدون .

وفي السيرة النبوية مواقف أخرى تبين مدى أثر القرآن على هؤلاء الذين كفروا بالإسلام وعاندوا القرآن ظاهراً ، إلا أنهم لم يستطيعوا إخفاء أثره عليهم ، راجع مثلا (موقف عتبة بن ربيعة)[١٤١] ، وتحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن[١٤٢] ، ومقالة ابن الزبعرى للنضر بن الحارث[١٤٣] ، وغير ذلك من المواقف .

(١٤١، ١٤٢، ١٤٣) ، المصدر السابق ، ص ١/ ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ .

٣ - مظاهر أثر القرآن على اليهود :

اليهود أهل اكتاب سماوي ، وأتباع نبي من أولي العزم من الرسل ، لكنهم حرفوا كتاب ربهم ، وآذوا رسولهم ، ومارسوا من المعاصى ماأفسد فطرتهم ، وقوض معتقدهم ، وتواصوا على ذلك - جيل بعد جيل - حتى كان منهم من كان في عهد رسول الله - ﷺ وكان العرب ينتظرون منهم كلمة الفصل في الدين الجديد ، بما أنهم أصحاب دين ، وأتباع نبي يتباهون بذلك ، ويتعالون به على سواهم ، ويعلنون للعرب أنهم سيكونون أتباع نبي مرسل - بعد موسى وعيسى - يزدادون به شرفا وهدى ، ورفعة وسؤددا .

فلما بعث الله محمدا - ﷺ - وجعل معجزته القرآن الكريم ، وحفظه من بواعث التحريف والتبديل ، جحد اليهود الحق ، وكفروا به وأبوا الإسلام ، وناهضوا حجج القرآن الصادقة التي لاتحابي أحدا ، لامسلما ولايهوديا ، وكان للقرآن وحججه وقع شديد على نفوس اليهود ، فقد تناول دخائل قلوبهم بالبيان ، وسرائر نفوسهم بالإفشاء ، ومكر عقولهم بالتصويب ، واعوجاج طبيعتهم بالإصلاح ، فكيف عبروا عن تأثرهم بالقرآن؟ هل رأوا فيه ضالتهم فعمدوا إلى تعاليمه يتداوون بها ويستشفون؟ أم نكصوا على أعقابهم ، وانكفأوا على ضغائن صدروهم؟

يقول الله سبحان وتعالى مبينا مظهر تأثر اليهود بالقرآن : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

(١٤٤) سورة المائدة ، آيه :٦٤ .

وفي القرآن عن صفات يهود وخصالهم وأفعالهم الظاهرة والباطنة حديث طويل جدا ومافي هذه الآية من صفاتهم سوى القليل ، ولن نتتبع ذلك في القرآن أو في هذه الآية ، فليس ذلك محل بحثنا ، وإنما نقف أمام قوله سبحانه في هذه الآية : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فنرى أن مجاهد - رضي الله عنه - قد فسر قوله ﴿ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أنه القرآن الكريم ، وقد وافقه على ذلك عدد غير قليل من المفسرين(١٤٥) ولعله ظاهر الآية ، والله أعلم .

وأنا - هنا - في البحث عن إعجاز القرآن التأثيري أتساءل : هل أثر القرآن على اليهود؟ وكيف كان تأثيره كما نفهم من هذه العبارة من تلك الآية؟ أما أثر القرآن في اليهود فواضح جلي ، ويكفيك التاريخ شهادة على ذلك ، فمنذ نزوله وكشفه عما حرفوه في كتاب ربهم ، ومأأقترفوه في حق أنبيائهم ، ومازعموه في حق خالقهم من دعاوى باطلهم ، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ونار الحرب المستعرة بين اليهود والقرآن لايهدأ لها أوار ، ولايعدم لها شرار .

ولقد سجل القرآن الكريم هذا التأثير في هذا الموضوع بهذا الوصف الذي يدل على الزيادة في الطغيان والكفر ، والطغيان ! هو الزيادة عن كل حد ، والكفر : هو الستر الدائم لما علموه من الحق وإظهار ماهو ضده دوما .

وربما نرى اختلاف نوع التأثير في اليهود عن سواهم ، وذلك لصفاتهم النفسية المعقدة التي أشار القرآن الكريم إلى كثير منها ، ونذكر منها على سبيل المثال صفتين :

أولاهما : قساوة القلوب : قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ

(١٤٥) تفسير ابن كثير ١/ ٧٢، ٧٦ .

فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾(١٤٦) .

يقول الأستاذ عفيف طبارة : (شبه الله قلوبهم القاسية بالحجارة الصلبة ، وقال : بل إنها أشد قسوة منها ، لأن الحجارة قد تتأثر وتنفعل ، فهناك أحجار تنفجر منها المياه الكثيره ، وأحجار تتشقق فيخرج منها الماء عيونا ، ومنها مايتردى من أعلى الجبال انقيادا لإرادة الله بتأثر الصواعق أو البراكين أو الزلازل ، والمراد بالقلوب : مااعتبرت عنوانا له ، وهو الوجدان والعقل ، فقلوب بني إسرائيل قست ففقدت خاصية التأثر والانفعال ، فلم تعد الحكم والعظات والعبر تستطيع الوصول إلى قلوبهم والنفاذ فيها)(١٤٧) .

وقد وصل اليهود إلى مادون الجماد في قلة تأثرهم بما يسمعون من آيات الله ، فإن الجماد قد سجل الله تأثره بالقرآن لو أنزل عليه ، فقال سبحانه : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(١٤٨) فالجماد لو عقل القرآن وتفهمه لخر خاشعا مفتتا ، خوفا وفرقاً وطاعة لله سبحانه ، وأما اليهود فإنهم لما سمعوا آيات القرآن ازدادوا طغيانا وكفرا .

وأما الصفة الثانية : فهي الحسد ، وهو المرض القلبي الخبيث الذي يحرم صاحبه من الانتفاع بعلم الآخرين ونفعهم ، وكان هذا المرض ولازال هو الداء العضال الذي أمات قلوب يهود ، فجعلهم لايتأثرون بالقرآن . يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾(١٤٩) ولماذا هذه الأمنية الغريبة التي

---

(١٤٦) سورة البقرة ، آيه : ٧٤ .

(١٤٧) اليهود في القرآن - ص٥٩ ، عفيف طبارة - طبعة ٩ - دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٢ .

(١٤٨) سورة الحشر ، آيه : ٢١ .

(١٤٩) سورة البقرة ، آيه : ١٠٩ .

يعتنقها يهود ويتمنونها للمؤمنين؟ لأنهم لايريدون للكون خيرا أو عمارا ، وإنما يريدون خرابا ودمارا ، ولايشجعون على الإيمان ، بل يصدون من آمن ، ويبغونها عوجا .

٤ - مظاهر أثر القرآن على المنافقين :

وبعد أن وقفنا أمام بعض النماذج من الإعجاز التأثيري للقرآن على المؤمنين والكفار واليهود - فلابد أن نقف أمام صنف آخر مذبذب بين أهل الكفر وأهل الإيمان ، يرنو بعين إلى الجنة فيعلن الإسلام ، وقلبه وروحه وعينه الأخرى تعشق المعصية ، وتمجد الرذيلة ، وتطمئن إلى الكفر ، ذلكم أهل النفاق .

ولذلك فسنحاول - هنا - أن نقف أمام بعض الآيات التي أثرت في المنافقين تأثيرا قويا ، جعلت أحوالهم تتغير وتتبدل حسب تصوراتهم النفسية المريضة ، وحسب درجة خوفهم أو فرحهم ، تأثرا بهذه الآيات ، ولنتبع في ذلك ترتيبها في المصحف الشريف :

أ - اتباع الفتنة :

قد يتبع المنافقون القرآن الكريم ظاهرا ، يعصمون به دماءهم ، ويسترون به خبثهم ، ويحاولون إثارة الشكوك والفتنة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾(١٥٠) .

(١٥٠) سورة آل عمران ، آيه : ٧ .

في تفسير الطبري ينص ابن جرير على أن الذين في قلوبهم زيغ : هم المنافقون[١٥١] وهذا التفسير من ابن جرير هام في بحثنا هذا - وإن كان كثير من المفسرين لم ينص على طائفة بعينها ، لأن الآية عامة - فإننا أخذا بما نص عليه ابن جريج نستطيع القول : بأن القرآن قد قهر نفوس المنافقين ، قهرا جعلهم يتبعون أوامره ونواهيه ظاهرا ، وكان المتنفس الذي وجدوه لمرض قلوبهم أن يشيعوا بين المسلمين تأويلات خاطئة للقرآن ، وذلك باتباع المتشابهات منه ، وهجر الآيات المحكمة التي تقوم عليها حياة الأمة الإسلامية ، ولذلك كان المنافقون أشد خطرا على المجتمع الإسلامي من أشد أعدائه .

ب - خوف وحذر :

لقد ترك القرآن أثره في نفوس المنافقين ، فصاروا يعيشون في خوف وحذر دائمين منه ، لأنه يكشف عن خبيئة قلوبهم ، وينشر على المؤمنين ماأسره المنافقون وأبطنوه في طوايا نفوسهم ، يقول سبحانه : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[١٥٢] إلى هذا الحد بلغ تأثير القرآن من نفوس المنافقين فهم يحذرونه حتى قبل أن ينزل ، لأنهم أخفوا في قلوبهم أمورا ، والقرآن سيكشفها بصدق لامراء فيه ، ولايقع منهم هذا الحذر على صورة جادة تدفعهم إلى سلوك الصراط المستقيم ، والانخراط في صفوف المؤمنين ، وإنما يحذرون في صورة هازئة عابثة ، وحاشا للقرآن أن يعبث كعبثهم ، ولذلك ، فإذا أطلعهم وأطلع

(١٥١) تفسير الطبري ٣/ ١٧٦ ، الطبعة الثالثة - مطبعة الحلبي - مصر ١٣٨٨هـ .

(١٥٢) سورة التوبة ، آيه :٦٤-٦٦ .

الناس معهم على ماأخفوه وكتموه أثار ذلك عندهم الاعتذار والندم الظاهري ، وحاولوا (التملص) بحجج واهية ، وهي (الخوض واللعب) وهل ماتتعمده القلوب يكون خوضا ولعبا؟ كلا ! إنما هو الإيمان أو الكفر ، كما قال سبحانه : ﴿ **قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ . وقد كان لهذه الآيات الكاشفة الفاضحة لطوايا نفوس المنافقين الخبثاء . والتي جعلت قتادة يسمي سورة براءة التي ذكرت فيها باسم (الفاضحة)(١٥٣) - من شدة تأثيرها على بعضهم ، وتفاعل مع ماتبقى من حشاشة الإيمان في قلوبهم ، فأقلعوا عن النفاق .

قال عكرمة في تفسير هذه الآيات : (كان رجل ممن شاء الله أن يعفو عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أُعنى بها ، تقشعر منها الجلود ، وتوجل منها القلوب ، اللهم اجعل وفاتي قتلا في سبيلك ، لايقول أحد أنا غسلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت . قال فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا قد وُجدَ غيره)(١٥٤) .

ج - أيكم زادته هذه إيمانا؟ .

هكذا يتساءل المنافقون هذا السؤال العجيب الذي يتبين منه خوفهم الدائم على ماتخفيه قلوبهم أن يظهره القرآن ويكشفه ، يقول سبحانه وتعالى مصورا حالهم ذلك : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ (١٥٥) (سؤال مريب ، لايقوله إلا الذي لم يستشعر وقع السورة المنزلة في قلبه ، وإلا لتحدث عن آثارها في نفسه بدل التساؤل عن غيره . وهو في الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة ، والتشكيك في أثرها في القلوب !

(١٥٣) المصدر السابق ، ١/ ٣٥٢ .
(١٥٤) تفسير ابن كثير ، ١/ ٣٥١ .
(١٥٥) سورة التوبة ، آيه :١٢٤-١٢٥ .

لذلك يجيء الجواب الحاسم ممن لاراد لما يقول : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة ، فزادتهم إيمانا ، وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم ، خفقة ، فزادتهم إيمانا ، وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال آياته عليهم ، فزادتهم إيمانا . وأما الذين في قلوبهم مرض ، فزادتهم رجسا إلى رجسهم . وماتوا وهم كافرون . وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء من الله - سبحانه - محقق .

هكذا تحدث سيد قطب حول هذه الآية في (ظلاله)(١٥٦) ، وهو حديث يثبت الإعجاز التأثيري للقرآن ويؤكده . فأثر القرآن ومظاهر هذا التأثير واضحة في الفريقين : في المؤمنين : زيادة في الإيمان ، واستبشار في الوجوه . وفي المنافقين : زيادة في الرجس والشر والدنس ، وخاتمة سيئة ، هي الموت على الكفر .

فأثر القرآن مختلف في الفريقين ، حسب نوع المتلقي ومالديه من استعدادات لاستقبال المؤثرات القرآنية ، أو موانع من أمراض القلوب المتنوعة ، فهما بالنسبة للتأثر بالقرآن - كما يقول ابن كثير : (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) إي زادتهم شكا إلى شكهم ، وريبا إلى ريبهم ، كما قال تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾(١٥٧) وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾(١٥٨) .

(١٥٦) الظلال ، ٣/ ١٧٤٢ .
(١٥٧) سورة الإسراء ، آيه : ٨٢ .
(١٥٨) سورة فصلت ، آيه : ٤٤ .

وهذا من جملة شقائهم : أن مايهدى القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لايزيده إلا خبالا ونقصا(١٥٩) .

٥ - مظاهر أثر القرآن على الجماد :

يقول سبحانه وتعالى لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾(١٦٠) قال ابن كثير : يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبينا علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد . ﴿ لو أنزلنا ﴾ الآية ، أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم القرآن فتدبر مافيه لخشع وتصدع من خوف الله عزوجل ، فكيف يليق بكم ياأيها البشر أن لاتلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ! ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . قال العوفي عن ابن عباس : ﴿ لو أنزلنا . . ﴾ يقول سبحانه : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع .

وقد ثبت في الحديث المتواتر : أن رسول الله - ﷺ - لما عمل له منبر - وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد - فلما وضع المنبر أول ماوضع ، وجاء النبي - ﷺ - ليخطب ، فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حن الجذع ، وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يُسكَّت ، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . وهكذا هذه الآية ، إذا كانت الجبال الصم

(١٥٩) تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣٨٤ .
(١٦٠) سورة الحشر ، آيه : ٢١ .

لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته ،.فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟[١٦١] ويصور سيد قطب تأثير القرآن في الجماد أبلغ تأثير ، فيقول في تفسير هذه الآية : ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه ، وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن** . . ﴾ .

وهي صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا ، لايثبت له شيء يتلقاه بحقيقته . ولقد وجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سمع قارئا يقرأ سورة : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾[١٦٢] فارتكن إلى الجدار ، ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرا مما ألم به ! !

واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ، ويرتجف ارتجافا . ويقع فيه من التغيرات والتحولات مايمثله في عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد . والله خالق الجبال ، ومنزل القرآن . يقول ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن** . . ﴾ الآية والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة ، تذوقا لايعبر عنه إلا النص القرآني المشع الموحي[١٦٣] .

---

(١٦١) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٣٤٣ .

(١٦٢) سورة الطور ، آيه :١-٨) .

(١٦٣) تفسير الظلال ، ٤/ ٣٥٣٢ .

الخاتمة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاً ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الكهف ١ ،٢) وأشهد ألا إله إلا الله وحده ، وأصلي وأسلم على محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فللبحث مع كتاب الله مذاق جميل ، لايطعمه إلا من اقترب من حياضه ، وعاش بين أجزائه وسوره وآياته ، ومن الله عليه بتوفيقه ، وأحاطه بعنايته ورعايته ، ولم يحرمه التوفيق فيما يبحث فيه ، والوصول إلى المبتغى الذي يريده . والبحث في وجوه إعجاز القرآن ، وبخاصة (الإعجاز التأثيري) أمر له صعوبته ، وخطورته .

أما صعوبته : فلأنه لم يكتب فيه علماؤنا بصورة مستقلة عن سواه من وجوه الإعجاز الأخرى ، وأما خطورته فلأني أخشى القول بما لأعلم ، والوصول إلى ما لأرجو . والأمر لايتعلق بشيء هين ، إنما يتعلق بأعظم كتاب على وجه البسيطة وهو القرآن الكريم .

ومن هنا كانت خطواتي في هذا البحث تسير على وجل ، وتعتمد دوما على الله ، ثم على السابقين . وقد حاولت أن أقدم لهذه الوجه من وجوه الإعجاز (الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم) تعريفا وتأصيلا ، ولذلك عرضت لمعنى الإعجاز ولوجوهه بصفة عامة ، لأستخلص هذا التعريف ، وحاولت أن أرصد خطى هذا الوجه الإعجازي للقرآن ، منذ نشأته حتى عصرنا الحاضر ، فكان الرجوع في ذلك إلى من كتب عنه من القدماء والمحدثين ، للوصول من

خلال أقوالهم إلى عدة أمور :

الأول : تاريخ الإعجاز التأثيري ومكانته .

الثاني : محاولة التقعيد والتأصيل للعملية التأثيرية نفسها ، من خلال أقوال العلماء .

الثالث : استنباط بعض قواعد عملية التأثير والتأثر كما يراها العلماء السابق ذكرهم ، وتتمثل فيما يلي :

١ - القاعدة الأولى :

مصدر النص المؤثر : يجمع العلماء السابقون على أنه الله سبحانه وتعالى ، وان هذه المصدرية جعلت للقرآن صفة تأثيرية يتميز بها عن سواه .

٢ - القاعدة الثانية :

محتويات النص المؤثر : وهي مااحتوى عليه القرآن من أسباب للتأثير فيمن يسمعه أو يقرؤه ، كالحديث عن الألوهية ، والغيبيات ، والرسل ، والجنة والنار ، ومحاورة النفس الإنسانية ، والقضاء على مافيها من ملل أو جدل ، وغير ذلك ، مما حواه القرآن من بلاغة وبيان . . .إلخ .

٣ - القاعدة الثالثة :

القاريء ، أو التالي ، أو الذاكر للنص المؤثر : له دوره البارز في مسألة التأثير ، فكلما كان - هو نفسه - أكثر إيمانا بالنص وصدقا معه ، كلما كان النص أكثر تأثيرا فيمن يسمعه . ونرى ذلك أوضح مايكون في كلام (ابن القيم ، والدكتور عبدالكريم الخطيب) .

٤ - **القاعدة الرابعة :**

لحظة التلقى للنص المؤثر : فالتأثير بالقرآن يختلف من وقت لآخر مع المؤمن به ، وهو - ولاشك - مع الكافر به كذلك ، فاللحظة التي قابلت قبولا عند (عمر ابن الخطاب) للقرآن فجعلته يسلم تختلف عن تلك التي مر بها (عتبة بن ربيعة) فجعلته على إعجابه بالقرآن لايدخل الإسلام ، وتختلف - أيضا - عن تلك التي تحدث عنها كل من د .الخطيب ، وغيره في تجاربهم العملية مع القرآن ، وهذه - والله أعلم - من خصوصيات هذا النص الإلهي المعجز .

٥ - **القاعدة الخامسة :**

أحوال المتلقي للنص المؤثر : وهي التي نسميها موانع التأثير ، والتي تتمثل في بعض الشبهات والشهوات ، وماتحويه النفس الإنسانية من تعلات ، وقد تحدث عنها بصورة واضحة كل من (ابن القيم ، والغزالي) .

٦ - **القاعدة السادسة :**

مظاهر التأثير في المتلقي : لابد للنص القرآني أن يحدث أثرا في النفس الإنسانية ، حتى وإن كان واقرا في الآذان - لايعيره المتلقي اهتماما ، فإن ذلك أثر ، بيد أننا قد رأينا للقرآن مظاهر تأثيرية كثيرة ، ذكرها (الخطابي ، والجرجاني ، وغيرهما) بصورة واضحة وجلية .وكل الذين تحدثوا عن الإعجاز التأثيري لم يرعهم سوى هذه المظاهر التي تركها القرآن فيمن سمعه أو قرأه .

٧ - **القاعدة السابعة :**

أجمع العلماء أنه لايوجد كتاب مؤثر فيمن يسمعه كالقرآن الكريم إذاما أزيلت موانع التأثير بينه وبين قارئه .

وأخيرا فقد حاولت الاقتراب شيئا يسيرا من الآيات القرآنية نفسها ، لأقدم محاولة تطبيقية ،وكانت المحاولة المتواضعة التي حامت حول الآيات ، ولم تصل إلى سر التأثير الكامن فيها ، ولذلك كان اللجوء إلى نصوص السيرة النبوية علها تكشف لنا مواقف هؤلاء المتأثرين بآيات القرآن من المؤمنين والكافرين على سواء ، ولاشك أن الباحث أمام القرآن صغير مهما عظم ، قليل مهما كثر ، فإن كان الله قد وفقنا فذلك فضله ، وتلك منته ، وإن كانت الأخرى فذلك من نفسي والشيطان ، أعاذنا الله منه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - مكتبة الحلبي - الطبعة الثالثة مصر ١٣٧٠هـ .

٢ - إعجاز القرآن - للباقلاني - تحقيق السيد أحمد صقر - دار المعارف مصر ١٩٦٩م .

٣ - الإعجاز في دراسات السابقين - د .عبدالكريم الخطيب - دار الفكر العربي مصر ١٩٧٤م .

٤ - البيان والتبيين - الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون - دار الجيل ، بيروت لبنان ١٤١٠هـ .

٥ - الترغيب والترهيب - للمنذري - تحقيق محي الدين الديب - دار ابن كثير ، مصر ١٤١٤هـ .

٦ - التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - مكتبة الشروق - مصر ١٤٠٧هـ .

٧ - تحت رأية القرآن ٠- الرافعي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر ١٣٨٥هـ .

٨ - تفسير القرآن الحكيم - محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

٩ - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - دار الحديث - القاهرة ١٤١٠هـ .

١٠ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للخطابي ، والرماني ، وعبدالقاهر - تحقيق د .محمد زغلول سلام وآخرين - دار المعارف - مصر١٣٧٦هـ .

١١ - جامع البيان عن تأويل أي القرآن - الطبري - دار المعرفة - بيروت - لنبان د .ت .

١٢ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير - للسيوطي - دار الفكر - بيروت - لبنان ١٤٠١هـ .

١٣ - الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - دار الريان للتراث - القاهرة ١٤٠٧هـ .

١٤ - دلائل الإعجاز - عبدالقاهر الجرجاني - تحقيق محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٤٠٤هـ .
١٥ - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني - الألوسي - مطبعة بولاق ، مصر ١٣٠١هـ .
١٦ - سنن الترمذي - الترمذي - مطبعة الأزهر - القاهرة ١٣٥٠هـ .
١٧ - السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - دار الريان مصرد .ت .
١٨ - شرح الشفا - نور الدين القاري - تحقيق حسنين مخلوف - مطبعة المدني - مصر ١٠١٤هـ .
١٩ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى - القاضي عياض - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان د .ت .
٢٠ - صحيح البخاري - البخاري - دار المعرفة بيروت - لبنان د .ت .
٢١ - صحيح الجامع الصغير الألباني - المكتبة الإسلامية - بيروت ١٣٩٩هـ .
٢٢ - صحيح مسلم - الإمام مسلم القشيري - دار المعرفة - بيروت - لبنان د .ت .
٢٣ - الظاهرة القرآنية - ملك بن نبي - ترجمة الدكتور عبدالصبور شاهين - دار الفكر - دمشق - سوريا ١٤٠٢هـ .
٢٤ - فتح القدير - الشوكاني - مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة ١٣٨٣هـ .
٢٥ - في إعجاز القرآن - د .محمد بركات المكتبة الدولية - مؤسسة الخافقين ١٤٠٣هـ .
٢٦ - في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب - دار الشروق - الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ .

٢٧ - الفوائد المشوق في علوم القرآن - ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان د .ت .
٢٨ - الكشاف عن حقائق التنزيل - الزمخشري - دار المعرفة - بيروت - لبنان د .ت .
٢٩ - مختصر السيرة النبوية - عبدالله بن محمد عبدالوهاب - المطبعة السلفة ، مصر ١٣٨٩هـ .
٣٠ - المستدرك على الصحيحين - الحاكم - الطبعة الأولى - دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٤٢هـ .
٣١ - المسند - الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق أحمد محمد شاكر - دار المعارف - القاهرة ١٣٦٧هـ .
٣٢ - المفردات في غريب القرآن - الأصبهاني - مكتبة الأنجلو - مصر ١٩٧٠م .
٣٣ - مفهوم الإعجاز القرآني - أحمد العمري - مكتبة الأنجلو - مصر ١٩٨٤م .
٣٤ - مع القرآن - د .أحمد الحوفي - دار نهضة مصر - مصر ١٣٩١م .
٣٥ - الملل والنحلل - الشهرستاني - مطبعة الأزهر - القاهرة ١٣٦٦هـ .
٣٦ - نظرات في القرآن - محمد الغزالي - الطبعة الخامسة - دار الكتب الحديثة - القاهرة د .ت .
٣٧ - اليهود في القرآن - عفيف طبارة - الطبعة التاسعة - دار العلم للملايين بيروت - لبنان ١٩٨٢م .